مجلة شهرية

نور المسيح
ΦΩΣ ΧΡΙΣΤΟΥ

Issue No: 149 عدد:

January 2020 شهر كانون ثاني

جمعية نور المسيح، رقم ٥٨٠٣٢٧٩١٤ ، ص.ب. ٦١٩ قانا الجليل ١٦٩٣٠

Nour Almasih / Light of Christ, Registered Society No. 580327914 - P.O.Box 619 , Cana of Galilee 16930, website:www.lightchrist.org

عيد ظهور ربّنا يسوع المسيح الإلهيّ المقدّس

فِي ظُهورك في نَهر الأردنّ.
واعتمادك من المعمدان
أيُّها المسيح المخلِّص
شُهِدَ لكَ بانَّكَ الابن المحبوب.
فظهرت مُساويًا للآب في الأزليّة.
وحلَّ عليكَ الرُّوح القُدُس.
الذي استنرنا نحنُ به فنهتف قائلين:
المجدُ لله المثلث الأقانيم

بمناسبة عيد الميلاد المجيد
وبدء السنة الجديدة

تتقدّم جمعية نور المسيح
بأجمل آيات التهاني والامنيات
وبخالص المودّة والتقدير

إلى غبطة البطريرك
كيريوس كيريوس ثيوفيلوس الثالث
بطريك المدينة المقدسة أورشليم
وسائر أعمال فلسطين

أدامه الله لنا ذُخرًا وسندًا وعونًا وبَرَكَةً
لكي ترتقي الكنيسة الروميّة الأرثوذكسية
وتسمو عاليًا ليشع فيها نور الخلاص للمؤمنين قاطبة

لسنين عديدة ومديدة يا سيّد

كلمة صاحب الغبطة بطريرك المدينة المقدّسة أورشليم
كيريوس كيريوس تيوفيلوس الثالث
بمناسبة عيد الميلاد المجيد في قطر 25-12-2018

«يا بيتَ لحمَ استعِدّي ويا مذودُ تهيَّأ، ويا مغارة استقبلي، فقد جاءَ الحقُّ وزالَ الظِلُّ. وظهرَ الإلهُ للبشرِ منَ العذراء مُتَّخِذًا صُورَتَنَا وَمُؤَلِّهًا ما اتَّخذهُ.» **(إيذيومالا من خدمة الساعات الكبرى لعيد الميلاد، من نظم القديس صفرونيوس بطريرك أورُشليم).**

في هذه الأيامِ الاثني عشرَ السعيدةِ والْبَهِيَّةِ (من يومِ عيدِ الميلادِ إلى يومِ عيدِ الغطاس) ولاسيَّما هذا اليومُ الذي هو يومُ ميلادِ المسيح، تُرسِلُ الكنيسةُ أولًا وقبلَ كلِّ شيءٍ المجدَ والشكرَ معَ العالمِ والبشريةِ قاطبة، لربِّ المجدِ وَتَتَهَلَّلُ مُعَيِّدَةً لهذا الحدثِ الفائقِ الطبيعةِ المميَّزِ، وللسرِّ الغريبِ المستغربِ الذي يفوقُ إدراكَ كلَّ عقلٍ بشريٍّ.

فبحسبِ بشارةِ إنجيلِ المحبة، إنَّ هذا العيدَ هو **تجسدُ وتأنسُ كلمةِ الله** « وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَدًا وَحَلَّ بَيْنَنَا» (يوحنا ١: ١٤) ، ولمحبةِ اللهِ الفائقةِ لجنسِ البشرِ، فقد سُرَّ اللهُ الآبُ وارتضى بأن يصيرَ ابنُهُ ابنَ الإنسانِ، وأن يتجسدَّ وَيُوْلَدَ بالجسد **من القديسةِ العذراءِ الطاهرة**، إذ يقولُ مرنمُ الكنيسةِ **«إنَ الإلهَ قد ظهرَ على الأرضِ متجسدًا وتردَّدَ بين الناسِ»**.

إنَّ **«ابنَ اللهِ»** بحسبِ **القديسِ يوحنا الدمشقي المتوشح بالله:** قد اتخذَ ما هو الأدنى – **أي طبيعتنا البشرية** – حتى يعيدَ بذاتِهِ وفي ذاتِهِ تجديدَ ما كان على صورتِهِ ومثالِهِ، وأعتقنا منَ الفسادِ بشركةِ الحياةِ إذ صار هو بدءَ قيامتنا، وجدَّدَ فينا الإناءَ المهملَ والمُتصدِّعَ. (المئة مقالة في الايمان الأرثوذكسي ٧٧).

ويقولُ **القديسُ غريغوريوس اللاهوتي** عن عملِ محبةِ اللهِ للبَشَر هذه: «بأن الله قد ارتحلَ إلى الأرضِ لكي يستوطنَ البشرُ السماءَ».

وقد تمّت ولادةُ **ابنِ اللهِ بالجسدِ من العذراءِ الدائمة البتولية في بيتَ لحمَ اليهودية** زمنَ اكتتابِ المسكونةِ على عهدِ **أُكتافيوس أُغسطس قيصر**، وعهدِ **هيرودوس الملك** (لوقا ٢: ١، متى ٢: ١) ولأنهُ لَمْ يَكُنْ للمسيحِ مَوْضِعٌ فِي الْمَنْزِلِ فقد وُلِدَ متنكرًا في المغارةِ؛ والأهمُ أنَّ إخلاءَ كلمةِ اللهِ لذاتِهِ وَتَأَنُّسِهِ وولادتِهِ بالجسدِ، قد تمتْ تحتَ الأرضِ محتجبًا في مغارةٍ لكي يتوارى عن عظماءِ الأرضِ، وقد أظهرَ اللهُ للناسِ فقرَ المغارةِ والأقمطةِ بإعلانهِ هذا من السماواتِ، إذ دعا المجوسَ عبرَ نجمٍ من المشرقِ يحملون الهدايا (متى٢:١) ورعاةً ساهرين مع الملائكةِ يرتلونَ: « الْمَجْدُ للهِ فِي الأَعَالِي، وَعَلَى الأَرْضِ السَّلاَمُ، وَبِالنَّاسِ الْمَسَرَّةُ » (لو:١٤).

إن رسالةَ السلامِ الإلهيةِ السماويةِ هذه لرئيسِ السلامِ ورسولِ الرأيِ العظيمِ، هي رسالةُ المصالحةِ وتنازلِ اللهِ نحوَنا نحنُ البشرَ ورسالةُ المغفرةِ والتواضعِ الأقصى، هذا التواضعُ الأقصى الذي وصلَ حتى **ذبيحةِ الصليب**. فالكنيسةُ التي تأسَّستْ على المسيحِ المتجسدِ تحتضنُ هذه الرسالةَ الإلهية، وتختصُّ بها لذاتِها، وتعملُ وتستمرُ بها وتكرزُ بها للقريبِ والبعيدِ ولأعضائِها وللعالمِ أجمع، دون تمييزٍ لعِرْقٍ أو جنسٍ أو دينٍ أو لونٍ أو لغةٍ، فهي تدعو الجميعَ وتقولُ **قولَ رسولِ الأمم:** « اقْبَلُوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا كَمَا أَنَّ الْمَسِيحَ أَيْضًا قَبِلَنَا، لِمَجْدِ اللهِ.» (رومية ١٥:٧). وتصدحُ الكنيسةُ بهذهِ الرسالةِ خاصةً لعظماءِ الأرضِ الذين يُوَجِّهُون حياةَ البشرِ وَيُحَدِّدون تَطَوراتِها في الشرقِ الأوسطِ لكي لا ينتفخوا **بالكبرياءِ والغرور**، بل ليكونوا رؤساءَ يخدمونَ بالعدلِ والحقِّ حتى يعيشوا بازدهارٍ وكرامةٍ وحرية.

إنَّ أمَّ الكنائسِ والتي تمتازُ عن جميعِ الكنائسِ كونُها لها البركة في خدمةِ المسيحِ المتأنسِ في هذه المغارةِ القابلةِ الإله، التي شيّد عليها **الملكانِ قسطنطين ويوستنيانوس هذه الكنيسةَ**، فهي تُصلي وتبتهلُ إلى ربِّ المجدِ من أجلِ سلامِ الشرقِ الأوسطِ، وازدهارِ مدينةِ بيتَ لحمَ ووحدةِ الكنائسِ متمنيةً لرعيَّتِها المسيحيةِ هنا وفي أرضِ السلامِ ومهدِ المسيحِ وفي جميعِ أنحاءِ الأرضِ العافيةَ والصحةَ والسلامَ والازدهارَ والنجاحَ والتقدمَ والخلاصَ. وأيضاً للمؤمنين الزوارِ القادمين من أقاصي المسكونة، تتمنى لهم قوةً وبركةً ونعمةً. وسلام لكم جميعًا من طفلِ المغارةِ الإلهيِّ المتجسدِ لأجلنا، **والمولودِ من العذراءِ مريم إلهنا ومخلصِنا يسوعَ المسيح**.

وللأمير تميم بن حمد آل ثاني أمير دولةِ قطر ذاتِ القوانينِ الصالحةِ القائمةِ على العدلِ والديمقراطيةِ والحريةِ الدينيةِ طالبين من اللهِ أن يهبَهُ السلامَ والاستقرارَ والصحةَ والعافيةَ والعمرَ المديدَ وكلَّ بركةٍ سماويةِ.

الداعي لكم بالرب
البطريرك ثيوفيلوس الثالث
بطريرك المدينة المقدسة أورشليم

لذا ليكن عندنا الصّلاح والمحبّة في داخل نفسنا

للقديس بُورفيريوس الرّائي

للإنسان قِوى يستطيع بطريقةٍ مَا نقلَ **الخير** أَوِ **الشَّرِّ** إلى محيطه. هذه الموضوعات جِدُّ دقيقةٍ، وهي بحاجة إلى ٱنتباه كبير. علينا أن نرى أبسط الأشياء وبطريقة صالحة، كما ويجب ألَّا نفكّر أبدًا بالإساءة للآخرين. نظرةٌ واحدةٌ، وتنهيدةٌ واحدةٌ تؤثّران على من يعيشون معنا. **والغضبُ** مهما قلَّ **يُوَلِّد شرًّا**. ليكن عندنا **الصّلاح والمحبّة داخل نفوسنا**. ولننقُلهما بالتالي إلى الآخرين.

ولْننتبه ألَّا نَغضَب على الذين يُؤذوننا، بل لِنُصلي فقط بمحبّة من أجلهم. ويجب ألَّا نفكّر أبدًا بالإساءة إليهم، وإن تمادى بعضُهُم في أذِيَّتنا ولو كان يعيش معنا، **وعلى صلاتنا أن تكون دائمًا وأبدًا بمحبّة وأنْ نُفكّر بالخير في كلّ آن.**

تَرَوْنَ كيف كان **الشهيد الأول استفانوس** يدعو **(لراجميه)** بصوتٍ عظيم: «يَارَبُّ، لاَ تُقِمْ لَهُمْ هذِهِ الْخَطِيَّةَ».. (أعمال الرسل ٧: ٦٠)، وعلينا نحن أن نقتدي به.

يجب ألَّا نُفكّر أبدًا بأنّ الله سيُنزل بالآخر سوءًا ما، أو سيعاقبه على خطيئته. **هذا الفكر يجلُب الشرّ العظيم** دون أن نُدرك نحن ذلك. نغضَب مرّاتٍ كثيرة ونقول للآخر: «**ألَا تخاف عدالةَ الله، ألَا تخاف من أن يعاقبك؟**» ونقول مرةً ثانيةً: «**ليس من الممكن إلَّا أن يعاقبك الله على ما فعلته**». أو«**يا إلهي، لا تُنزِل شرّك على ما فعله نحوي هذا الإنسان**» أو «**ألَّا يعاني هذا الإنسان ما عانَيت**».

في شتّى الحالات، يختلجُ شوقٌ في أعماقنا لأن يُعاقَب الآخر. لكن، بدل أن نعترف له بِغَضَبِنَا من جرّاء غلطته، نُبيّن بطريقة أخرى غضبنا متظاهرين بأنّنا نرجو الله لِيَرْفق به، أمّا في الواقع **فنلعنُ** هذا الأخ.

وبدل أن نصلّي أحيانًا نقول «**لِيجازِكَ الله ولْتلقَ الشرّ منه على ما فعلتَهُ بي**»، وعندها، ندعو الله مجدّدًا أن يعاقِبَهُ.

وأيضًا عندما نقول، «**فليكن**.....، **الله يرى**»، إستعدادُ نفسِنا يعمل بطريقةٍ سرّيةٍ، يُؤثّر على نفس هذا الإنسان الذي يعيش معنا وهذا الأخير يعاني **الشرّ**.

عندما نفكّر بالسوء، **تخرج من داخلنا قوةٌ ما شرّيرة** وتنتقل إلى الآخر كما ينتقل الصوت بواسطة التموُّجات الأثيرية، وبالفعل يعاني هذا الأخير السوء، **ويَحِلُّ أمرٌ ما كصيبة العين** عندما تكون في قلب الإنسان **أفكارٌ شرّيرة للآخرين**، وهذا نتيجة غضبنا الذاتي. نحن ننقل بطريقة غير منظورةٍ **شرّنا**. لا يسبّب الله الشرّ بل **الشرّ**

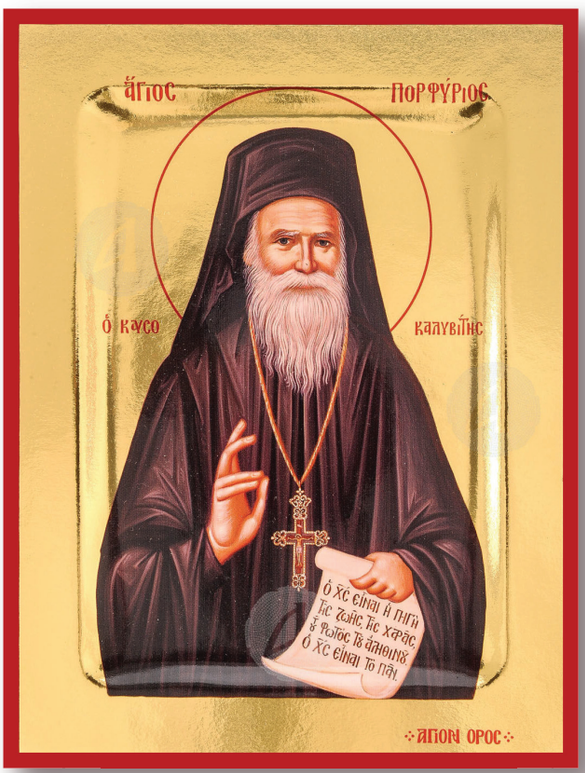

القديس بُورفيريوس الرّائي

سبَبُهُ الناس. الله لا يعاقب، بل **استعدادُنا للشرّ ينتقل سرًّا إلى نفس الآخر فيُولّد فيه الشرّ**. المسيح يرفض دومًا الشرّ. وعلى العكس يدعو :«باركوا لاعنيكم...» (متى ٥: ٤٤).

صيبةُ العينِ قباحةٌ كبرى. وهي **التأثير الشرّير** الحاصل عندما يغار أحدٌ من أحدٍ، ويتمنّى متاعًا أو شخصًا يرغب به. هذا يتطلّبُ إنتباهًا كبيرًا. **الحسد** يُولِّد شَرًّا كبيرًا للآخر، ومن **يصيبُ بالعين** لا يخطُرُ بباله ولو قليلًا **بأنّه يقترف السوء**. أرأيتم ما يقوله العهد القديم: «لِأَنَّ سِحْرَ الْبَاطِلِ يُعْشِّي الْخَيْرَ». (حكمة سليمان ٤: ١٢).

غير أَنّ **إنسان الله الذي يعترف ويتناول القربان المقدّس ويحمِلُ الصليب، لا تنالُ منه أبدًا قِوى الشرّ وإن تجَمْهَرَ عليه كلّ الشياطين.**

«المحبة صارت رايتنا عندما أوصانا بها الرب. أنظر كيف هبطت علينا من العلاء فَحَلَّتْ بركة الإنجيل محل أحكام الشريعة. الشريعة تأمر بالانتقام من المعتدي. أمّا الإنجيل فيهب المحبة بدلًا من العداوة، والإحسان بدلًا من البغض، والصلاة بدلًا من اللعنة».

القديس أمبروسيوس أُسقف ميلان.

عَظَمَةُ الرُّومِيَّةِ الأُرثُوذكْسِيَّة

الكوليفية وتجديد الهدوئية في الجبل المقدّس

الآباء الهدوئيين (الكوليفاذيس) في جبل آثوس

الكوليفيون ***(Kolyvades)*** هو اسم الآباء الهدوئيين، منذ القرن الثامن عشر. في كنيستنا الأرثوذكسية أكثر من حالة أُعطيَت اسمًا من باب الهُزء، ومن ثمّ صار الاسم ثابتًا ومعروفًا. أهم هذه الحالات هو **القديس سمعان اللاهوتي الحديث** الذي **سمّاه أعداؤه، إكليريكيو البلاط، لاهوتيًا من باب السخرية**، لكن الكنيسة عادت لاحقًا وثبّتت الاسم جاعلة هذا **القديس واحدًا من ثلاثة فيها**. أمّا الحالة الثانية فهي الآباء الكوليفيون، وقد سمّاهم أعداؤهم بهذا الاسم نسبة إلى **الكوليفا وهي القمح المسلوق** الذي يقدّم في تذكارات الموتى، أو أعياد القديسين مُزيَّنًا وممزوجًا بعدة أشياء.

قصة الكوليفيين تعود إلى سنة ١٧٥٤ **في دير القديسة حنة في جبل أثوس**. فقد كانت كنيسة الدير تخضع لبعض التصليحات، ولم ينتهِ العمل بها قبل يوم سبت، فلم يُقَمْ قداس، واقترح بعض الرهبان نقل ذكرانية الموتى (التريصاجيون) إلى الأحد. سبب آخر أيضًا استدعى بالنسبة إلى البعض نقل الذكرانية إلى الأحد، وهو أن السوق الكبير كان يُقام في **كارياس عاصمة الجبل** يوم السبت. فكان من الأنسب لرهبان دير القديسة حنة بسبب بُعد الدير عن العاصمة أن ينتهوا من القداس باكرًا ليلحقوا السوق. رفض أغلب الرهبان نقل الذكرانية لأن يوم الأحد، **بحسب التقليد الشريف، هو يوم قيامة السيِّد** ، بينما يوم السبت مخصص للأموات. تطوّر الخلاف بين المجموعتين وامتدّ إلى خارج **جبل أثوس**، وطال مختلف أوجه الحياة الروحية. **أُطلِق اسم الكوليفيين على الذين رفضوا الذكرانيات يوم الأحد**. فيما بالمقابل انطلق الكوليفيون إلى التغيير، أو المطالبة بالتغيير والعودة إلى التقليد في كل الأمور التي لحقها الخروج عن التقليد أو الضعف.

فاستعمال الاسم بالشكل الهُزئي المذكور كان للتعمية على أعمالهم الأخرى التي دعت وأدّت إلى التجديد والتنوير على أساس التقليد الآبائي. والفيلوكاليا التي يُعْتَبَر جمعها أحد إنجازاتهم. عدد من الكوليفيين **تعرّض للاضطهاد من قِبَل الأرثوذكس أنفسهم** بسبب **التأثير الغربي** الذي كانت كنيسة القسطنطينية تحته، سواء بسبب حركات الاقتناص أو بسبب تأثير العلوم والتربية الغربية على الذين كانوا ينضمون إلى الجامعات الموجودة في الغرب، والمفقودة في الشرق. لكن الأمر لم يبقَ على ما هو إذ إن الكنيسة في وقت لاحق كانت تعيد إلى هؤلاء الآباء حقهم، على غرار ما جرى مع القديس غريغوريوس بالاماس، لأن تعليمهم كان ينتشر، وكانت النعمة تجد مَن يحمله.

فصار من **الكوليفيين نيوفيطوس الكافسوكاليفي الذي يُعتَبَر منشئ التيار، والقديسون نيقوديموس الأثوسي جامع الفيلوكاليا وقوزما الإيتولي ونيكولا بلاناس ونكتاريوس أسقف المدن الخمس وخريستوفوروس أرتا، أغابيوس القبرصي الذي نقل التعليم إلى جزيرته، يعقوب البيلوبونيزي، بارثانيوس كاتب سير القديسين، باييسيوس الخطاط، ديونيسيوس السياتيستي مُجدِّد دير الفاتوبيذي، وييروثيوس الأب الروحي للبروتاتون في الجبل المقدس، وباييسيوس فيليشكوفسكي الذي حمل هذا الفكر إلى رومانيا، وتليمذه جاورجيوس تسارنيكا الذي حمل هذا الفكر إلى أديار مولدافيا، وصوفرونيوس فراتسيس في بوخارست، وأنتيباس المولدافي الذي أوصل هذا التعليم إلى دير بلعام في فنلندا**.

يظهر في الأيقونة المرفَقَة العديد من القديسين اللاحقين **كنيكولاس بلاناس ونكتاريوس أسقف المدن الخمس وسلوان الأثوسي**، حتّى أن بعض النسخ الحديثة من هذه الأيقونة تضمّ **القديسين بورفيريوس وباييسيوس** وذلك لأن الكوليفية صارت صنو الهدوئية وكل الذين اهتمّوا بالحفاظ على التقليد وإحيائه هم من الكوليفيين.

إن الكوليفية هي كبرى الهزّات التي أصابت الجبل المقدس أثوس من بعد البالاماسية في القرن الرابع عشر. وفي الإطار نفسه كانت هي أيضًا معركة بين **فكر التنوير الغربي والتقليد الأرثوذكسي**. وفي كلتا الحالتين بدا وكأن فكر الابتداع انتصر إذ انعقد مجمع **برئاسة صوفرونيوس الثاني** في سنة ١٧٨٥، وانتهى بإدانة فكر الكوليفيين وحُكم على تعليمهم بأنه مسبب «**للفتنة والفضائح في الكنيسة**»، وتجريد بعضهم ونفي البعض الآخر. **فمكاريوس نوتاراس أسقف كورنثوس وأثناسيوس أسقف باروس انتُزِعا من كرسييهما ونُفيا**. لكن انتشار تلاميذهم وأصالة الخبرة التي علّموا عنها وأثرها في الشعب المؤمن أدّت إلى انعقاد مجمع جديد **برئاسة البطريرك الشهيد غريغوريوس الخامس** في ١٨١٩ حيث أعاد إلى **مكاريوس وأثناسيوس** اعتبارهما، وضمهما إلى **لائحة القديسين وتبنّى تعليم الكوليفيين** الذي يمنع إقامة الذكرانيات في الآحاد، على ما كان عليه الحال، ويشجّع على تواتر المناولة، ويدعو إلى الالتزام بالخبرة الهدوئية التجريبية **وضحد التأمل الماورائي والعقلانية**. من هنا صار استعمال اسم الكوليفيين دليلًا على الاتزام المسمّى بالهدوئية وفخرًا له.

ختامًا، يلاحظ المراقب أن الكثير من الظروف تتكرر في تاريخ الكنيسة، لكن القديسين لا يتكررون، وهذا ما يثبّت الضعف والانحلال. لكن كنيسة المسيح لا تقوى عليها أبواب الجحيم.

استقلال التجسُّد الإلٰهي عن سقوط الإنسان

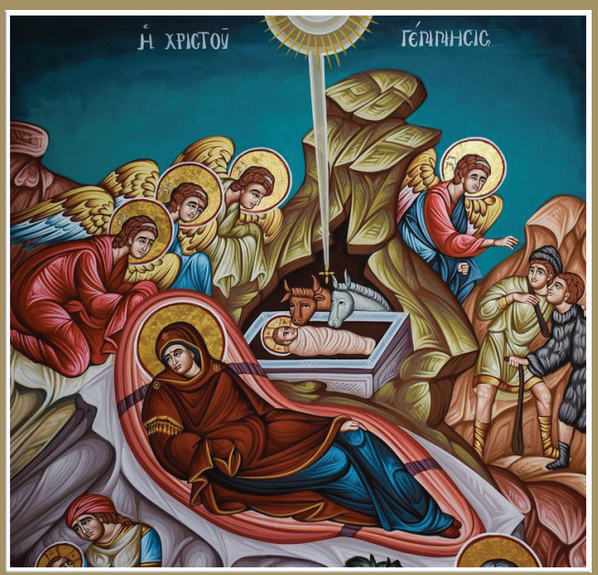

الميتروبوليت إيروثيوس فلاخوس

يُدْخِلُ **سِرَّ تجسُّد ابن الله وكلمته** إلى **تألُّه الإنسان**. **يُشدِّد آباء الكنيسة القديسون** على **أن الله صار إنسانًا** لكي **يجعل الإنسان إلهًا** (بالنعمة). لا يبلغ أي إنسان إلى التألُّه إلَّا عَبر ابن الله وكلمته المتجسّد. يناقش اللاهوتيون المعاصرون ما إذا كان التجسّد قد استلزم **سقطة آدم** أو إذا كان التجسّد مُستقلًا عن **سقوط الإنسان**. وتقوم هذه المناقشة لأنَّ هناك نصوصًا **لآباء الكنيسة** حول **هذه السَّقْطَة**.

أ) الموقف العام لآباء الكنيسة

تنبغي الإشارة منذ البداية إلى أنّ الآباء القديسين لا يواجهون هذا السؤال على منوال **سكولاستيكي** بطريقة افتراضية. (**أُنظُر المقالة في صفحة ١٠ للأب الدكتور جورج ميتالينوس حول الفلسفة السكولاستيكية**) فَهُمْ لم يفكروا في ما إذا كان المسيح ليتجسّد أم لا، **لو لم يسقط آدم**. هذه الأسئلة تشير إلى استعمال مفرط للعقل في مجهود لفهم أسرار الله، وهذا **سكولاستيكية نموذجية** وليس **لاهوتًا أرثوذكسيًا**. يهتمّ لاهوت الكنيسة الأرثوذكسية بالأحداث التي جرت، ويتعاطى مع مسألة **شفاء** الطبيعة البشرية والناس جميعًا. ينظر هذا اللاهوت إلى الطبيعة البشرية **الساقطة** وكيفية شفائها للبلوغ **إلى التألُّه** الذي صار من خلال **تَجَسُّدِ الله**.

في التعليم الآبائي أن في التجسّد **اتَّحَدَ** ابن الله وكلمته **أقنوميًا** بالطبيعة البشرية، وهكذا **تَأَلَّهَتْ** هذه الطبيعة **وصار الدواء الحقيقي والوحيد لخلاص الإنسان وتألّهه**. من خلال المعمودية المقدسة يستطيع الإنسان أن يصير عضوًا لجسد المسيح ومن خلال **المناولة المقدسة** يستطيع أن يشترك في الجسد المؤلَّه للمسيح، الجسد الذي أخذه **من والدته السيِّدة**. لو لم تتم هذه الوحدة الأقنومية بين **الطبيعتين الإلهية والبشرية**، لما كان التألّه ممكنًا. لهذا السبب كان التجسّد الغاية الأخيرة لخلق الإنسان. إن آلام المسيح وصليبه هي الأمور التي أضافها **سقوط آدم**. يقول **القديس مكسيموس**: «أن التجسّد كان لخلاص الطبيعة، والآلام كانت بهدف تحرير أولئك الذين بالخطيئة امتلكهم الموت».

يقول **القديس أثناسيوس الكبير**: «أنه كان ينبغي أن يتجسّد ابن الله لسببين أساسيين. أولًا، لِيُغَيِّر الفاسد إلى عدم الفساد، والمائت إلى عدم الموت، وهو ما لم يحدث بالتوبة البسيطة إنما باتّخاذ الله الجسد البشري المائت والسريع التأثر. ثانيًا، لكي يتجدَّد الإنسان بالمسيح لأن الابن وكلمة الله هو المثال الأول للإنسان».

هذا الموقف اللاهوتي للقديس أثناسيوس لا يعارض موقف آباء الكنيسة الآخرين الذي سوف نراه بعد قليل، والذين يتكلّمون عن أنَّ التجسّد الإلهي لا يفترض السقوط كشرط مُطلق. وهذا لسببين أساسِيَّين.

أولًا: لأن في التحليلات التي يقدمها، ينظر القديس أثناسيوس إلى الإنسان الساقط بشكل خاص، فيتحدث عن سقوط الإنسان وإعادة تجديده. يرتكز لاهوت القديس على الحقيقة القائمة. وهو يهتم بشكل جِدِّيٍّ بتجديد وإصلاح هذا الإنسان الذي **لَبِسَ الموات** وإمكانية التجربة.

ثانيًا: لأنه يتحدث عن سِرِّ التجسد الإلهي وتدبير الله كما نعرفه اليوم. فعندما يتكلّم عن التجسد والتألّه هو يعني تجسد المسيح وآلامه وصليبه وقيامته. يرى القديس أثناسيوس هذا كافيًا ولا يتابع إلى تحاليل أخرى.

إذًا، تختلف افتراضات القديس أثناسيوس الكبير عن افتراضات غيره من الآباء القديسين الذين سوف نتوقف عندهم في الجزء التالي. إنهم لا يتكلمون عن الأمور نفسها. ينبغي أن نكون قادرين على ولوج نوس الآباء وتعليمهم كي **لا نكون مُخطئين**.

ب) موقف القديس نيقوديموس الأثوسي

في تحليله للتعليم الآبائي حول النقطة ذاتها، يصل **القديس نيقوديموس** إلى خلاصة: «أن تجسد ابن الله وكلمته لم يكن نتيجة سقوط الإنسان بل كان الهدف الأول من خلقه، لأن بهذا يمكن الوصول إلى التألُّه. هذا يبدو صحيحًا عندما نفكر بأن سقوط آدم لم يكن لِ «يلزم» الله أن يصبح إنسانًا، ولم يكن المسيح ليأخذ الطبيعة البشرية إلى الأبد. هذا ما يتركنا نستنتج بأن السقوط تمّ لكي يتجسّد الله وبأنّه في النهاية لم يكن سيئًا بل كان بَرَكَةً».

يُطَوِّر القديس نيقوديموس الأثوسي هذه النقطة اللاهوتية في دراسة ممتازة عنوانها: «**دفاع عن النص الذائع الصيت حول سيِّدتنا والدة الإله في كتاب الحرب اللامنظورة**» الذي يشكّل مثالًا للمقالة اللاهوتية. لقد

كان **القديس نيقوديموس الأثوسي لاهوتيًا عظيمًا في الكنيسة** لأنه استوعب التعليم الآبائي بشكل عميق وعبّر عنه بشكل مؤثّر ومثمر.

لقد حَدَّد الحافز لكتابة دفاعه عبارة من كتاب «**الحرب غير المنظورة**» الذي كان منتشرًا في ذلك الحين فَكَتَبَ: «**إنّ كل العالم المنظور وغير المنظور تكوّن لهذا الهدف، لوالدة الإله، ووالدة الإله كانت من أجل سيّدنا يسوع المسيح**».

لقد أثارت هذه المقالة بعض لاهوتيّي ذلك الزمان الذين عبّروا عن شكوك حولها. لهذا كتب القديس نيقوديموس في بداية دفاعه: «**بما أن بعض المعلّقين المهتمّين باللاهوت المقدّس، والذين قد قَرَؤُوا ما كَتَبْتُ عن السيّدة والدة الإله... محتارون... أنا أعتذر هنا لتقصيري عن حل مشكلتهم**». إنه لأمرٌ مثيرٌ للإعجابِ أن يبدأ القدّيس دفاعه بتواضع كبير، من دون أن يفتري أو أن ينتقد لاهوتيّي زمانه الذين كانوا ينتقدونه. فهو يتقدم إلى شرحه من دون هوى إنما بهدوء ورزانة. في الواقع، إن المواضيع اللاهوتية تستلزم حوارًا جِدِّيًا، وإلّا فالروح القدس لا يعمل.

بعد تقديم حُجَجِهِ اللاهوتية، التي سوف نعرضها في ما يلي، يستنتج: «أرى أن هذه الكلمات القليلة تكفي للاعتذار من الحكّام المشكورين، والقرّاء لِمَا كَتَبْتُ عن والدة الإله، وأنا أسألهم ألّا يُفرِطوا بلومي، لأني لا أكتب ما كتبت من رأيي ولا من عقيدتي، بل اتّبعت عقائد اللاهوتيين الذين تكلّموا قبلي. وإذا كان البعض يوبّخني مُحَرِّكًا بالانفعال فليوبّخ بالأحرى **مكسيموس المتوشح بالله، غريغوريوس التسالونيكي وإندراوس العظيم** وغيرهم من الذين استعرت منهم هذه العقيدة».

إنّ هذا النَصَّ مُذهلٌ وَيُظْهِر طريقة القدّيس في مواجهة الحالات المماثلة. في البداية يتكلّم القديس نيقوديموس بتهذيب. فهو يصف قُرَّاءه بالمشكورين ويسألهم بِأَلّا يلوموه بإفراط. إنه يأمل بِأَلّا يكون متّهموه مُحَرَّكِينَ بالهوى. مع أنّه يعرف أنهم مُشْبَعُونَ بالأهواء، فإنّه لا يتوجّه إليهم باتهامات سطحية. من ثمّ يشدّد على أنّه لا يُعَبِّر عن نظرته هو، لكنه يروي تعليم آباء الكنيسة القدّيسين الذين منهم استعار هذه العبارة.

في ما يلي سوف نعالج بتحليل أكثر نظرة القديس نيقوديموس الأثوسي اللاهوتية التي بحسبها «**كل العالم المنظور وغير المنظور تَكَوَّنَ لهذا الهدف، لوالدة الإله، ووالدة الإله كانت من أجل سيّدنا يسوع المسيح**»، أي أنَّ تجسّد المسيح كان الهدف الأصلي للخليقة وغايتها. هذا يعني أنه هكذا تمّ **اتحاد الإنسان بالله**، وبالتالي **التجسّد** كان مُستقلًا عن **سَقْطَةِ آدم**.

ج) التدبير الإلهي هو إرادة الله السابقة

لكي يدعم نظرته، يأخذ القديس نيقوديموس مقاطع من **الكتاب المقدّس** وآباء الكنيسة القديسين. فمن الكتاب المقدّس يأخذ بشكل أساسي ثلاثة مقاطع، **الأول** من الأمثال حيث يقول: «اَلرَّبُّ قَنَانِي أَوَّلَ طَرِيقِهِ، مِنْ قَبْلِ أَعْمَالِهِ، مُنْذُ الْقِدَمِ.» (أمثال ٨:٢٢). **الثاني** هو من رسالة بولس إلى الكولوسيين، حيث يُسَمَّى المسيح بِكْرَ كل خليقة: «الَّذِي هُوَ صُورَةُ اللهِ غَيْرِ الْمَنْظُورِ، بِكْرُ كُلِّ خَلِيقَةٍ.» (كولوسي ١:١٥). وبطريقة مماثلة يورِد المقطع من رسالة بولس إلى الرومانيين: «لأَنَّ الَّذِينَ سَبَقَ فَعَرَفَهُمْ سَبَقَ فَعَيَّنَهُمْ لِيَكُونُوا مُشَابِهِينَ صُورَةَ ابْنِهِ، لِيَكُونَ هُوَ بِكْرًا بَيْنَ إِخْوَةٍ كَثِيرِينَ.» (روما ٨:٢٩).

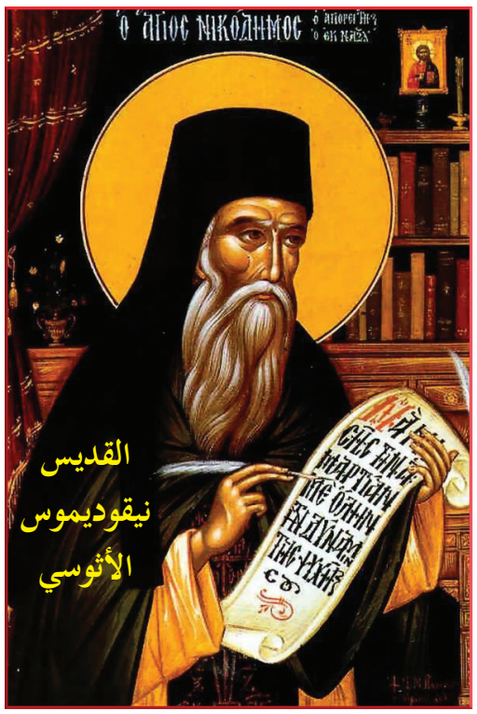

في تفسيره لهذه المقاطع على أساس تعليم الآباء القديسين، يقول: أنها لا تُشير إلى الألوهة، لأنّ الكلمة لم يُخلَق من الله، ولا هو أول المخلوقات كما قال أريوس، لكن هذه المقاطع تشير إلى بشرية المسيح التي «هي بداية كل قضاء تنبأ به الله قبل أي شيء آخر، إنها أولى ما قام به». هكذا، سِرُّ تدبير الابن المتجسّد وكلمة الله يبدأ من كل طرق الله، إنّه بِكْرُ كل خليقة «وقد تمّ تحديده قبل تعيين كل المخلّصين».

عند القديس مكسيموس المعترف مقطع مميّز يدعم نظرته. سوف أستشهد هنا بجزء كبير منه لأن معناه مُهِمٌّ وله وزنه. «إنّه سِرّ التجسّد لَعظيم وعميق. إنه الأمر المبارَك الذي لأجله كل الأشياء توطدت أهدافها». إنَّ تَجَسُّدَ المسيح هو سِرٌّ عظيم وعميق لأجله أوجد الثالوث القدوس العالم كله. ويتابع **القديس مكسيموس**: «إنه الغاية التي تصوَّرها الإله سلفًا لأول الخليقة مُحَدِّدًا ما نسميه الهدف الذي لأجله كل شيء كان، من دون أن يكون هو لأي شيء». إن هذه العبارة مُذهلة لأنها تُظهر أنَّ سِرَّ التَجسُّد هو الغاية الإلهية التي كانت من بدء خليقة الكائنات، وكل شيء كان لهذا الهدف وليس لأي هدف آخر. هذا يعني أن قرار التجسّد سبق. بالتأكيد، يجب فهم هذا الأمر بمعنى أن الوقت ليس موجودًا في الله. ويتابع **القديس مكسيموس** بشكل مُعَبِّر: «أوجد الله جواهر الكائنات بهذا الهدف. إنه بشكل رئيسي غاية العناية الإلهية والأمور التي يقدمها، ونحو هذه الغاية تكون في الله خُلَاصَةُ كل الأمور التي صنعها». خلق الله العالم لهذا الهدف، فغاية العناية الإلهية وإعادة كل الخليقة هي التَجسُّد.

هذا المقطع مفاجئ ومميّز جدًا، ولا يستطيع أحد أن يفسّره بطريقة أخرى. إذًا، إذا كان هذا المقطع من تعليم **القديس مكسيموس** صحيحًا، فسوف يُثَبِّت أنَّ **تألُّه الإنسان تمّ بالفعل عَبر الاتحاد الأقنومي بين الطبيعتين الإلهية والبشرية في شخص كلمة الله**. وهكذا،

فالسيّدة والدة الإله التي منها اتّخذ **المسيح جسدًا**، كانت حصيلة خلق كل العالم، المنظور وغير المنظور. **الإنسان هو خلاصة كل الخليقة.**

يقول **القديس غريغوريوس بالاماس** بالإشارة إلى **إثبات الآب** عند **معمودية المسيح في نهر الأردن**: «هذا هو ابني الحبيب»: أنّ هذا الصوت يُظهر أنّ كل ما كان في العهد القديم، الناموس والوعود والتبنّي، كان غير كامل «ولا مُختارًا أو مُكمّلًا بحسب رأي الله المسبَق، بل كان يتطلّع نحو الغاية الحاضرة ومكمّلًا نحو الحاضر، وهذه الأمور أُتِمَّت». من ثمّ يقول: أنه ليس فقط أحداث العهد القديم، بل أيضًا بداية العالم والإنسان كانت موجّهة نحو المسيح. وفيما هو يتابع، يُشَدِّد أنَّ خَلْقَ الإنسان، أيضًا كان لهذا الهدف. خُلق الإنسان على صورة الله «لكي يكون قادرًا يومًا ما على احتواء النموذج الأصلي».

هنا يميّز **القديس غريغوريوس بالاماس** بشكل حكيم بين **إرادة الله السابقة**، التي هي رغبته الصالحة، **وإرادته الصالحة النهائية** أي تجسّد كلمة الله من جهة، **وإرادة الله بالتدبير** أي ناموس العهد القديم من جهة أخرى. **إنَّ تجسّد ابن الله وكلمته** هو الرغبة الإلهية السابقة **وبالتالي هو مستقلّ عن سقوط الإنسان.**

يستنتج **القديس نيقوديموس الأثوسي** في إشارته إلى هذه المقاطع: «أتسمع أن الله خلق الإنسان على صورته لكي يكون قادرًا على احتواء النموذج الأصلي للتجسّد؟ ولهذا صنع الله الإنسان **وَحْدَةً** من العالم العقلي والحسي، **وموجَزًا وخلاصةً** لكل المخلوقات حتى باتحاده معه يتحد بكل المخلوقات، كما يقول القديس بولس، والخالق والخليقة يصبحان واحدًا بالأقنوم بحسب **مكسيموس المتوشّح بالإله** ».

إن حقيقة كون التدبير الإلهي، سِرُّ تجسّد ابن الله وكلمته، هو **إرادةَ الله السابقة**، تُظهر من أنَّ الملائكة استفادوا من التجسد أيضًا. نحن نعرف جيدًا أن الإنسان أخطأ وليس الملائكة الذين يمجدون الله بلا انقطاع. كون الملائكة استفادوا من التجسد يعني أن هذا الخير كان في فكر الله، وهو إرادته الكاملة وليس تدبيرًا. بحسب **القديس نيكيتا ستيثاتوس**، الملائكة كانوا بلا ميل نحو الشرّ، ولكن بعد التَجسُّد، وخاصةً بعد قيامة المسيح، صاروا ثابتين ضد الشرّ «ليس بالطبيعة بل بالنعمة». لقد بلغوا الثبات، بحسب **القديس يوحنا الدمشقي**، وحصلوا على الصمود بحسب **القديس غريغوريوس بالاماس**. وهكذا أيضًا كان الإنسان سوف يحصل على التألُّه بالنعمة من خلال **تَجسُّد المسيح** حتى ولو لم يكن **السقوط**.

بالطبع علينا أن نُكَرِّر أنَّ الآباء لم يقاربوا هذا الموضوع افتراضيًا، كون هذه المقاربة هي طريقة **التفكير السكولاستيكية**، لكننا استعملنا هذه العبارة الافتراضية لكي نُقدّم **تشديدًا خاصًا على الحقيقة الإيجابية** التي مفادها أنَّهُ من خلال المسيح أتى تألُّه الإنسان. من خلال تَجسُّد المسيح صار الملائكة، بالإضافة إلى كونهم غير متغيرين، صاروا أيضًا أكثر تَقَبُّلًا للاستنارة.

يستعمل **القديس نيقوديموس** حُجَجًا أخرى لكي يظهر أن التَجسُّد هو **الإرادة الأصلية**، كما يسمّيها النبيُّ إشعياء، كونها قديمة والأولى بين تصاميمه. **في الله: ١) جوهر، ٢) أقنوم ٣) قِوَى.**

القِوَى، أو الفعل الذي به يشترك الله مع الخلائق، **خارجية**.

الأقنوم هو **أكثر داخلية**.

والجوهر هو **الأعمق في الداخل**.

«بهذه الثلاثة اتّخذ الله إلى الأبد هذه الروابط الثلاث العامة». يشترك الآب بالجوهر إلى الأبد مع الابن والروح، بولادة الابن وَبَثْقِ الروح. «الابن اتّخذ علاقة أقنومية من الشركة مع البشرية، من خلال هذه العلاقة عَرَفَ مُقَدَّمًا وَأَدْرَكَ مُسْبَقًا الوحدة الفعلية التي بعد هذه العلاقة في الزمن». وعلى المنوال نفسه، «اتّخذ الله علاقة أبدية... ليشترك بالقوى مع الخلائق الباقية، ومن خلال هذه العلاقة عَرَفَ مُقَدَّمًا وَأَدْرَكَ مُسْبَقًا مصير كل الخلائق العقلية والجسدية». بما أن هذه العلاقة الأقنومية هي أكثر داخلية من علاقة القوى، فالمعرفة المسبقة للوحدة الأقنومية بين الطبيعتين الإلهية والبشرية سابقة للوحدة بالقوى وأكثر أصالة منها.

يُظهر هذا أيضًا في **كلمات الآباء القديسين عن والدة الإله التي هي الشخص الذي خدم سِرَّ التَجسُّد، والتي قَدَّمَتْ جسدها ليكون الوحدة الأقنومية بين الطبيعتين الإلهية والبشرية**. وهكذا يقول **القديس اندراوس الكريتي** : «**والدة الإله** هي... هدف عهد الله لنا. إنها تجلّي الأعماق العويصة غير المفهومة؛ إنّها الهدف الموضوع سلفًا لكل الأجيال لصنع الأجيال؛ إنّها تاج النبوءات الإلهية؛ إنها الإرادة الإلهية التي تفوق الوصف، والتي لا سبيل لوصفها بكل ما في الكلمة من معنى قبل الأزل لحراسة الإنسان».

هذه النظرة اللاهوتية مقبولة إذا افتكرنا أنَّ المسيح هو بداية خلق العالم وتألُّه الإنسان ووسطهما ونهايتهما. فقط من هذا المنظار يمكننا أن نرى أن سِرَّ التَجسُّد مُستقل **عن سقوط الإنسان**. يقول **القديس مكسيموس المعترف**: أنَّ ربنا يسوع المسيح هو «بداية الأجيال ووسطها ونهايتها، الماضية والحاضرة والمستقبلة». وفي تفسير هذا الكلام يقول **القديس نيقوديموس الأثوسي**: أنَّ هذا السِرَّ هو بداية الخلائق، لأن هدف هذا السِرَّ كان بداية المعرفة السابقة لخلق كل الخلائق، وسبب هذه المعرفة وهذا الخلق. إنه الوسط لأنه منح الملء لمعرفة الله المسبقة، وبالتالي الثبات للملائكة وعدم الموت وعدم الفساد والخلاص للبشر. إنه أيضًا النهاية لأن هذا السِرَّ صار الكمال والتألُّه والمجد والبركة للملائكة والبشر ولكل الخليقة.

د) استنتاجات

بعد تحليل هذا الموقف اللاهوتي، يصل **القديس نيقوديموس** إلى **استنتاجين**.

الاستنتاج الأَوَّل:

أ): أنه «لا بُدَّ لِسِرِّ التَجسُّد من أن يكون أولًا وقبل كل شيء، لأن هذا السِرَّ كان إرادة الله المُسبَقَة، كما نقول مع القديس غريغوريوس التسالونيكي، بالدرجة الأولى بسبب صلاح الله غير المتناهي والجوهري والأسمى، وبالأحرى بسبب هذا الأساس الأعمق للصلاح الأبوي، كما قال مكسيموس الحامل الإله».

ب): لأنَّ هذا كان ضروريًا لكل الخلائق الروحية والجسدية كبدايتها ووسطها ونهايتها، كما أُظهر.

الاستنتاج الثاني:

هو أنَّ والدة الإله أيضًا، كونها الوسيلة الأكثر مباشرة وصراحة والسبب المشترك الضروري لهذا السِرّ (لأن جسد المسيح هو جسد مريم بحسب الطوباوي أوغسطين)، كانت معروفة مُسبقًا وَمُسامة من الله قبل كل الخلائق الأخرى، وكل الخلائق الأخرى سيمت ووُجدت من خلالها، كون هذا هو الهدف الذي في فكر الله مُسبقًا، كما أنه النهاية التي من أجلها تكوّنت كل الأشياء، كما قال القديس أندراوس.

قد يبدو للوهلة الأولى أن كل ما يُشرح هنا، استنادًا إلى تعليم الآباء القديسين، يُشير إلى أمور نظرية لا تحمل أي تأثير على الحياة الروحية. **ولكن هذا خطأ** لأن للعقيدة علاقة عميقة وحميمة بحياة الإنسان الروحية. تُثبَت هذه الحقيقة في هذا التعليم اللاهوتي.

يُظهر كل ما رأينا أنَّ **كلمة الله صار إنسانًا لا لكي يسترضي الصلاح الإلهي، كما يقول اللاهوتيون الغربيون**، بل **لِيُؤَلِّه** الطبيعة البشرية بالمحبة والإحسان. إن استرضاء الصلاح الإلهي يعطي بُعدًا قانونيًا للحياة الروحية، لأنه يشير إلى أن كل نُسكنا يهدف إلى استرضاء الله. من ناحية أخرى، ليس الله مَن يحتاج مداواة بل نحن. لذلك تَجسُّد المسيح كان **إرادة الله المُسبقة والهدف المُطلَق** لخلق الإنسان. لم يكن الإنسان ليستطيع أن يبلغ الشركة مع الله لو لم يكن هناك **وحدة أقنومية بين طبيعتي المسيح الإلهية والبشرية** لأن هناك فرقًا عظيمًا **بين المخلوق وغير المخلوق**. لم يكن المخلوق ليستطيع أن يتحد مع غير المخلوق لو لم تكن هذه الوحدة الأقنومية بين الإثنين في شخص المسيح. **ما أُضيف بسقوط الإنسان** هو آلام المسيح وصليبه وموته وقيامته. وهذه الأمور مفهومة بالطبع بحقيقة أن من خلال تجسده **اتّخَذَ** المسيح طبيعة بشرية فائقة النقاوة لكنها قابلة للموت وللهوى.

أرى من واجبي أن أنهي بالقول بأن **القديس نيقوديموس الأثوسي** كما يظهر من هذه الأشياء القليلة التي ذكرناها، هو **لاهوتي وأب عظيم للكنيسة في التقليد الآبائي والكنسي**. إنه لاهوتي أرثوذكسي يرى خلاص الإنسان في العلاج ضمن الافتراضات المسبقة الأرثوذكسية. إذا كان البعض يرون الأمور غير ذلك، فلأنهم لا يعرفون تعليم **القديس نيقوديموس** الذي يقرؤونه مجتزأً، ومن خلال افتراضاتهم الخاصة. ولهم يكرِّر **القديس** كلماته التي وجّهها إلى متّهميه في حينه: «أرجو أَلّا تُفرِطوا بلومي، لأني لا أكتب ما كتبت من رأيي ولا من عقيدتي، بل اتّبعت عقائد اللاهوتيين الذين تكلّموا قبلي. وإذا كان البعض يوبخني مُحَرَّكًا بالانفعال، فليوبّخ بالأحرى مكسيموس المتوشح بالله، غريغوريوس التسالونيكي وإندراوس العظيم وغيرهم من الذين استعرت منهم هذه العقيدة. للذي يعطي البداية المجد إلى الأبد».

الله العجيب في تجسُّده
للقديس يعقوب السروجي

يا رَبِّي، صغيرة هي السموات لك، إن أردتها،
وعظيمٌ هو لك بطن مريم لأنك هكذا شئتَ.
لأنك أردتَ، إِتَّسَعَ لك البطن واحتواكَ؛
ولمَّا لم تُرد، لا تكفيك جميع العوالم، يا آبن رب آلكون.
ولأنك سُررتَ أن تسكنَ في البطن وأنت العظيم،
من أجل هذا أنت عجيبٌ لمحبيك.
مساوٍ عندك يا سيِّدي التعظيم والتصغير،
وفي اثنيهما أنت كما أنت ذاتك لعارفيك.
حتى حين حملك بطن مريم كما حَسُن لك،
فالعوالم كلها ممتلئة منك، لأنك هكذا أردت.
ليس هناك مكان عظيم بهذا المقدار ليكفي أن يحتويك،
ولا في المكان الصغير تنضغط إذا حللت فيه.
السماء صغيرة والصبية عظيمة حسب إرادتك،
تلك لا تسعك، وهذه حَملتك لأنك قويتها
حَبَلُ مريم ملأني دهشًا،
ولم أستطع أن أقول خبرها سوى بدهشٍ لا يُفسَّر.
وكيف لا أدهش بمن هو في مريم؛
إذ هو أيضًا في أبيه، الكل في الكل، ولم يَنْحَدُّ *.
هو في حضن الآب عتيق الأيام وأزلي؛
وداخل البطن جنين حُبل به، وهو كما هو.
هو بكليته جالس على مركبة اللهيب،
وهو أيضًا بكليته حال في بطنٍ لحمي، وهو كما هو.
مخفي بأزليته، مستتر بعظمته، متسربل باللهيب،
مُرتدٍ بالنار، ممجد على العرش ومخوف بين العَجلات.
مُرعب الكاروبيم، مدهش السارافيم، ممجد بين الصفوف؛
لابس البهاء، ملتحف بالمجد، محاط بالنور.
ينضغط منه اللهيب ويرتعب،
والأم الصبية حبلت وحملته!

* ينحَدّ : جذر الكلمة حدَّد – حَدُّ: ({الحَدُّ} : الفَصْلُ (الحاجِزُ بَيْنَ) الشَّيْئَيْنِ لئلّا يَختلِط أَحدُهما بالآخَرِ، أَو لئلّا يَتعدَّى أَحدُهما على الآخَرِ، وجمعُه حُدُودٌ. وفَصْلُ مَا بيْنَ كُلِّ (شَيْئَيْنِ) } حَدٌّ بَينهما.

الإيمان والعلم في المعرفة والمنهجية الأرثوذكسية

للأقوياء فقط

الآباء الهدوئيون (الكوليفاذيس) في جبل آثوس

الأب د. جورج ميتيلينوس

نقلها إلى العربية الأب أنطوان ملكي

أ) مشكلة حقيقية أو زائفة؟

استنادًا إلى المعطيات التاريخية، يُشكّل التناقض بين الإيمان والعلم والصِّدام الناتج عنهما **مشكلة حقيقية عند الفكر الغربي**، فيما هو مشكلة زائفة **في التقليد الأرثوذكسي الآبائي**.

ظهر المأزق في فرَضِيَّة «**الإيمان ضد العلم**» في **أوروبا الغربية** في القرن السابع عشر مع تطور العلوم الوضعية ومتزامنًا مع **ظهور مواقف أرثوذكسية** من هذا الأمر. مُهِمٌّ أن يُلاحَظَ أنَّ حصول هذه التطورات في الغرب كان **في غياب الأرثوذكسية**، إذ في العصور الحديثة حصلت غربة روحية، وتمايز بين **الغرب** (**العقلاني**) **والشرق الأرثوذكسي**. يُحدَّد هذا الواقع بنزع الأرثوذكسية (deorthodoxiation) ونزع الكنسية (de-ecclesiastication) عن **أوروبا الغربية**. **وتحويل الإيمان فلسفة** وقوننته وتكوينه بشكله النهائي **دينًا**. **فبحسب الأب يوحنا رومانيدس، الدين هو رفض الأرثوذكسية ومرض في القلب**. إذًا، تاريخيًا **الأرثوذكسية لم تشترك في صنع الحضارة الأوروبية المعاصرة** التي يختلف حجمها عن حجم حضارة الشرق الأرثوذكسي.

نقــاط التحوُّل المهمة فــي مسيــرة تـغيّر أوروبا الغربيَّة هي: **السكولاستيكية** في القرن الثالث عشر، **الإسمية (nominalism)** في القرن الرابع عشر، **الإنسانوية/النهضة** في القرن الخامس عشر، **الإصلاح** في القرن السادس عشر **والتنوير** في القرن السابع عشر. **إنها سلسلة من الثورات التي أحدثت صدعًا في بنية حضارة أوروبا الغربية المولودة في جدلية هذه الحركات.**

تقوم **السكولاستيكية** على تبني **الحقائق الأفلاطونية** بحيث يُنظر إلى عالمنا كصورة عن الكون المتعالي. أداة المعرفة هي الفكر. والمعرفة، بما فيها معرفة الله، تتم من خلال تسلل المنطق في جوهر الكائنات. **هذا هو أساس اللاهوت الماورائي**، الذي يفترض علاقة الوحي الطبيعي (Analogia Entis) **بين الله والعالم**، والمقاربة بين المخلوق وغير المخلوق. **السكولاستيكية هي صراع بين الفكرين الأفلاطوني والأرسطي في الفكر الأوروبي**. على كل حال، تحولت **الاسمية** إلى أن تكون نوعًا من الحمض النووي بالنسبة للحضارة الأوروبية، ذات العناصر الأساسية الثنائية فلسفيًا والفردية اجتماعيًا. **بالاستناد إلى لاهوت القرون الوسطى السكولاستيكي، أصبحت الرفاهية مسعى الإنسان الغربي الأساسي. الاسمية (أو الثنائية)** هي ركيزة التطور العلمي في العالم الغربي، أي تطور العلوم الإيجابية.

أما **الشرق الأرثوذكسي** فقد عرف **تطورًا لاهوتيًا مختلفًا**، بإرشاد من زعمائه الروحيين، أي **القديسين** ومَن تبعهم من المؤمنين الحقيقيين الذين بقوا **مخلصين للتقليد النبوي – الرسولي – الآبائي** الذي يقف على **الطرف النقيض للسكولاستيكية، وكل تطوراتها في العالم الأوروبي.** في الشرق، سيطرت الهدوئية أو الصلاة القلبية **وهي العمود الفقري للتقليد الآبائي**، ويعبّر عنها بالمشاركة النسكية التي تُختبر في الحقائق كشركة مع غير المخلوق. تاريخيًا، الإيمان بإمكانية الانضمام إلى الله والعالم (**المخلوق وغير المخلوق**) محفوظ في الشرق الأرثوذكسي. وهذا طبعًا يعني رفض كل أشكال الثنائية. وقد كان تطور العلم في **بيزنطية** ضمن هذا الإطار.

ساهمت ثورة القرن السابع عشر العلمية في أوروبا الغربية في فصل حَقْلَيِ الإيمان والمعرفة، وتسببت **بالمبدأ الفلسفي الأكسيومي** التالي: لا تقبل الفلسفة الجديدة (الإيجابية) سوى الحقائق التي يؤكدها الفكر العقلاني. هذه الفلسفة هي **السلطة المطلقة** في التفكير الغربي. حقائق هذه الفلسفة الجديدة هي **وجود الله والنفس والبِرّ والفضيلة والخلود والدينونة**. بالطبع لا يتم قبولها إلَّا بتنوير إلهي، لهذا نجد الإلحاد أيضًا كعنصر في الفكر المعاصر. **العقائد الكنسية المرفوضة بالمنطق هي: طبيعة الله الثالوثية، التجسد، التمجيد، الخلاص، وغيرها.** من وجهة النظر الأرثوذكسية، لا يختلف **هذا الدين الطبيعي والمنطقي** عن الإلحاد، **لا بل هو أسوأ**. فالإلحاد أقل خطرًا من صورته المشوهة!

ب) العرفانية الأرثوذكسية

لقد قلنا أن التناقض بين الإيمان والعلم هو في الشرق مشكلة زائفة، لماذا؟ لأن العرفانية (gnosiology) في الشرق تُحدد بموضوع المعرفة

المزدوجة: معرفة **غير المخلوق** ومعرفة **المخلوق**. وَحْدَهُ الثالوث القدوس غير مخلوق. الكون الذي يتحقق فيه وجودنا مخلوق. الإيمان هو معرفة غير المخلوق، والعلم هو معرفة المخلوق. إذًا هما نوعان مختلفان من المعرفة لكل منهما طريقته وسبل بحثه.

المؤمن، في حركته فوق أرض «الفائق الطبيعة»، أو معرفة غير المخلوق، ليس مدعوًا إلى تعلم شيء ميتافيزيكيًا أو لقبول شيء ما منطقيًا، إنما إلى اختبار الله من خلال الشركة معه. هذا يتحقق بطريقة حياة أو أسلوب حياة يقود إلى المعرفة الإلهية.

لو ظهرت المسيحية لأول مرة في زمننا، لكانت أخذت شكل مؤسسة علاجية، مستشفى لاسترجاع واستعادة عمل الإنسان ككائن مؤلف من نفس وجسد. لهذا السبب يدعو **القديس يوحنا الذهبي الفم** الكنيسة مستشفى روحيًا. تُفهَم المعرفة اللاهوتية الفائقة الطبيعة في الأرثوذكسية كخبرة حياة (pathos) وكمشاركة وشركة مع الحقيقة الشخصية المتعالية، وغير المدرَكة لغير المخلوق. بالتأكيد هذه المعرفة ليست أبدًا عملية تعلُّم. إذًا، الإيمان المسيحي ليس تبنيًا تأمليًا مجردًا لحقائق ماورائية، بالأحرى هو خبرة امتلاك beholding الكائن الحقيقي: خبرة الثالوث الفائق الجوهر.

إنَّ هذا يُعبِّر بوضوح عن أنَّ **السلطة في الأرثوذكسية هي في الخبرة**: خبرة المشاركة في غير المخلوق، معاينة غير المخلوق (كما يُعبر عنها بعبارة التمجيد أو theosis)، وهي لا تستند إلى نصوص ولا حتى إلى الكتاب المقدس. لا يُحفظ تقليد الكنيسة في النصوص بل في البشر. النصوص تساعد، لكنها ليست مَن يحمل التقليد المقدس. **القديسون يحفَظون التقليد، والكائنات البشرية هم حملة الإنجيل. وضع النصوص فوق الخبرة الفعلية لغير المخلوق هو دليل على تدين الإيمان، أي على جعله دينًا**. هذا التدين يحوِّل هذه النصوص إلى إيديولوجيات وبالواقع **إلى تأليهها**. هذا بدوره يقود إلى سلطة النصوص المطلَقة (fundamentalism) وكل ما هو معروف كنتيجة لها.

الافتراض المسبَق لوظيفة معرفة غير المخلوق، بالنسبة للأرثوذكسية هو رفض كل تشابه سواء طبيعي أو فوق الطبيعي في هذه العلاقة **بين غير المخلوق والمخلوق**. يلخّص **القديس يوحنا الدمشقي** هذا التقليد الآبائي بالطريقة التالية: من المستحيل إيجاد في الخليقة، إيقونة تظهر طريقة وجود الثالوث. لأنه كيف يستطيع المخلوق، المركب والمتغيّر والموصوف، الذي له شكل وَيَفْنَى، أن يُظهِر بوضوح الجوهر الإلهي الفائق الجوهر الخالي من كل هذه الصفات؟ (پاترولوچيا چريكا P.G. 94,821/21).

إذًا، يصبح الآن ظاهرًا سبب عدم اشتراط التقليد الآبائي لوجود مدارس التربية والفلسفة، على وجه التحديد، كفرض مسبق لمعرفة الله theognosia. فنحن نوقّر **القديس أنطونيوس** (+٣٥٠) الذي لم يكن حكيمًا بحسب المعايير الدنيوية، إلى جانب الأكاديمي العظيم **القديس باسيليوس الكبير** (+٣٧٩). **كِلَاهما شَهِدَا لمعرفة الله**، القديس أنطونيوس كشخص غير متعلم والقديس باسيليوس كشخص أكثر علمًا **من أرسطو**.

يختلف المغبوط اوغسطينوس (+٤٣٠)، ما يجده الغربيّون مؤلمًا جدًا عندما يعرفونه، عن التقليد الآبائي عند هذه النقطة عندما يهمِل المعرفة الكتابية والآبائية، ويكون بالجوهر أفلاطونيًا مُحدِثًا Neo-platonist. مع هذا ال axiom credo ut intelligam (أنا أؤمن كي أفهم) إنه يُدخِل المبدأ: **أنَّ الإنسان يصل إلى فهم منطقي للوحي من خلال الإيمان**. هذا يعطي أفضلية للعقل (الفكر) يعتبرها هذا النوع من المعرفة أداة أو وسيلة لمعرفة الطبيعي والفائق الطبيعة. **يُعتَبَر الله موضوعًا ممكن المعرفة، وممكن استيعابه بالفكر البشري مثل أي موضوع طبيعي آخر**. بعد المغبوط أوغسطينوس، **وبمساهمة سكولاستيكية توما الأكويني** +١٢٧٤، **ديكارت** بالخطوة التالية من خلال axiom cogito, ergo sum، **أنا أفكر إذاً أنا موجود**، قام بإعلان **العقل أو الفكر الأساس الرئيسي للوجود**.

ج) نوعا المعرفة

التقليد الأرثوذكسي هو مَن يضع نهاية لهذا التضارب النظري في حقل المعرفة، وهذا بالتمييز بين نَوْعَيْ من المعرفة والحكمة.

١) الإلهية أو التي من فوق.

٢) الدنيوية (thyrathen) أو الدنيا.

المعرفة الأولى هي فائقة الطبيعة بينما الثانية طبيعية. هذا يتطابق مع التمييز الواضح بين **غير المخلوق والمخلوق، بين الله والخليقة**. هذان النوعان من المعرفة يتطلبان طريقتين للتعلّم.

طريقة الحكمة – المعرفة الإلهية: هي شركة الإنسان مع غير المخلوق من خلال القلب. إنها تتم من خلال وجود قوة الله غير المخلوقة في قلب الإنسان.

طريقة الحكمة – المعرفة الدنيوية: هي العلم وهي تتم بممارسة القدرة الفكرية – المنطقية عند الإنسان.

الأرثوذكسية تضع تراتبية واضحة في هذين النوعين من المعرفة وَطُرُقِهِمَا.

طريقة المعرفة الفائقة الطبيعة، في التقليد الأرثوذكسي، **تُدعى الهدوئية** وتتماهى مع اليقظة (nepsis) وَتَطَهُّرِ القلب (katharsis). الهدوئية تتماهى مع الأرثوذكسية. **الأرثوذكسية، آبائيًا، لا يمكن استيعابها خارج الممارسة الهدوئية. الهدوئية في جوهرها هي الممارسة النسكية الشفائية بتطهير القلب من الأهواء لإعادة إنارة القدرة النوسية في القلب**. يجب الإشارة عند هذه النقطة، إلى أن طريقة الهدوئية كممارسة شفائية هي أيضًا علمية وعملية. إذًا، اللاهوت تحت الشروط المناسبة ينتمي إلى العلوم التطبيقية. التصنيف الأكاديمي للاهوت بين العلوم النظرية أو الفنون بدأ في الغرب في القرن الثاني عشر بسبب تحول اللاهوت إلى الماورائيات metaphysics. وعليه، الشرقيون الذين يدينون لاهوتنا **يثبتون غربنتهم Westernization**، لأنهم بالواقع يدينون ويرفضون كاريكاتورًا مشوهًا لما يعتقدونه لاهوتًا.

ولكن ما هي القدرة النوسية؟ في الكتاب المقدس، يوجد تمييزٌ بين

روح الإنسان (نوسه) وعقله (الوغوس أو الفكر). روح الانسان عند الآباء تُدعى نوسًا لتمييزها عن الروح القدس. النوس، هي أنقى جزء في النفس (القديس يوحنا الدمشقي). «سِرَاجُ الْجَسَدِ هُوَ الْعَيْنُ، فَإِنْ كَانَتْ عَيْنُكَ بَسِيطَةً فَجَسَدُكَ كُلُّهُ يَكُونُ نَيِّرًا» (متى ٦:٢٢).

القدرة النوسية تدعى وظيفة النوس في القلب، وهي وظيفة القلب الروحية. الوظيفة الموازية لها هي القلب كعضو يضخ الدم في الأجساد. هذه القدرة النوسية هي جهاز mnemonic موجود مع خلايا العقل. هاتان الاثنتان معروفتان وممكن للعلم البشري إيجادهما، بينما لا يمكنه أن يستوعب النوس. عندما يبلغ الإنسان الاستنارة بالروح القدس ويصبح هيكلًا لله، يتبدل حبّ الذّات إلى حُب غير مشروط، ويصبح بالتالي ممكِنًا إقامة علاقات اجتماعية بشرية قائمة على مبادلة reciprocity غير مشروطة (إرادة بالتضحية من أجل أخينا الإنسان) أكثر منه مطالبة **محبة للذّات بحقوق شخصية بحسب روح المجتمع الأوروبي الغربي.**

هكذا بعض النتائج المهمة تصبح واضحة. أولًا، أن المسيحية بأصالتها تتعالى على الدين، ومفهوم الكنيسة كمجرد مؤسسة من القوانين والوظائف. بالإضافة، فالأرثوذكسية لا يمكن أن تُفهَم كَتَبَنٍّ (الفعل–تَبَنَّى) لبعض المبادئ أو الحقائق المفروضة علينا من فوق. **هذه هي النسخة غير الأرثوذكسية** عن العقائد (مبادئ مطلقة، حقائق مفروضة). في الأرثوذكسية، تُفحَص الأفكار والمعاني من خلال البرهان بالخبرة. **نمط التفكير الجَدَلِيّ – العقلي في اللاهوت، كما إصدار العقائد،** غريبان عن التقليد الأرثوذكسي الأصيل.

في التقليد الأرثوذكسي، **العالِم والأستاذ في معرفة غير المخلوق** هو الشيخ (Geron/Starets/Elder/Spiritual Father)، إنه المُرشِد أو «معلم الصحراء». تسجيل نَوْعَيِ المعرفة المذكورين يفترض معرفة الظاهرة اختباريًا.

الشيء نفسه صحيح في حقل العلم، حيث يفهم الاختصاصي بحث غيره من علماء الحقل نفسه. تبني النتائج أو الاكتشافات في حقل علمي ما من قِبَلِ غير المختصين (أي غير القادرين على فحص بحث الاختصاصيين اختباريًا)، مبني على الثقة بمصداقية الاختصاصي وإلّا فلن يكون هناك تقدم علمي.

في علم الإيمان ينطبق الشيء نفسه. المعرفة الاختبارية عند القديسين، الأنبياء، الآباء والأمهات في كل العصور adopted ومؤسسة على الحقيقة نفسها. **التقليد الآبائي ومجامع الكنيسة يقومون على هذه الخبرة الثابتة.** ليس هناك مجمع مسكوني بغياب المجددين/المتقدسين (theoumenoi) الذين يُعايِنُونَ الإلهيات **(هذه مشكلة المجامع اليوم!).** العقيدة الأرثوذكسية تَنْتُج عن هذه العلاقة.

إذًا، الإيمان الأرثوذكسي هو عقائدي بنفس القدر الذي هو علم. الذين يتحدثون عن زغل (غِشّ) في حقل الإيمان ، يجب ألّا ينسوا

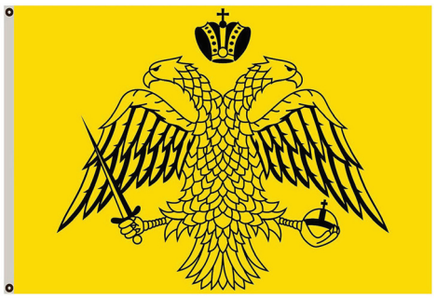

الرُّومية هي مستودع الحقيقة الإلهيّة.

كلمات **مرقس بلوخ** (بالألمانية: **Mark Bloch**) **هو فنان أداء ألماني، ولد في ٢٣ يناير ١٩٥٦**.) أنَّ كل بحث علمي مزغول منذ البداية وإلّا لم يكن أي بحث ممكنًا. المثل صحيح في الإيمان. الأرثوذكسية تُمَيِّز بين نوعين من المعرفة والحكمة وطرقهما ووسائلهما، وبالتالي تتلافى أي خلط أو تضارب بين الاثنين. يبقى الطريق مفتوحًا للخلط والتضارب فقط حيث تُفتَقَد شروط المسيحية وجوهرها. على أي حال، يوجد في المناخ الأرثوذكسي بعض التشابهات غير المنطقية، كإمكانية وجود شخص متفوق في العلم، بينما في المعرفة الإلهية هو طفل روحيًا، وعلى العكس قد نجد شخصًا ما عظيمًا في المعرفة الروحية وجاهلًا كليًا في الحكمة البشرية، كمثل القديس أنطونيوس الكبير المذكور سابقًا. مع هذا، ليس هناك ما يمنع إمكانية امتلاك نَوْعَيِ المعرفة والحكمة كالحالة عند الآباء والأمهات الكبار في الكنيسة. **هذا هو بالضبط ما تَنْشُدُهُ الكنيسة للقديسة كاترينا التي كانت عالمة في الرياضيات** في القرن الثالث، فهي الحكيمة التي امتلكت نوعين من المعرفة. فالشهيدة التي اكتسبت حكمة الله منذ الطفولة، تعلمت الحكمة الدنيوية أيضًا...

د) جدلية الإله–الإنسان

إذًا، المؤمن الأرثوذكسي يختبر في العلاقة المعرفتين/الحكمتين جدلية **إلهية بشرية.** وكي نستعمل التعابير الكريستولوجية (الكرستولوجيا هي مجال دراسة ضمن اللاهوت المسيحي مهتم بدراسة طبيعة يسوع، وخاصة كيفية ارتباط الألوهية والإنسانية في شخص يسوع)، كل معرفة يجب أن تنحصر وتتحرك ضمن حدودها. هكذا يُعَبَّر عن مشكلة حدود كل معرفة: تَخَطِّي هذه الحدود يؤدي إلى خلط وظائفها وبالنهاية إلى تصادمها. بحسب ما سبق، دافع الآباء القديسون عن الاستعمال الصحيح للعلم والتربية. يقول **القديس غريغوريوس اللاهوتي:** «يجب ألّا نُقَلِّل من قيمة التربية». الأب نفسه في عظته التعليمية الثانية يضع أيضًا حدود كل من الحكمتين. يقول القديس غريغوريوس أن **الحكيم القديم (أفلاطون)** قال: «من الصعب معرفة الله ومن المستحيل التعبير عنه بالكلمات». على أي حال، يوناني آخر ولكنه مسيحي، القديس غريغوريوس يفهم أنه **من المستحيل التعبير عن الله**، أي وصفه، بالكلمات، إلى هذا، من المستحيل جدًا فهمه! هذا يعني أن **أفلاطون** أشار إلى حدود المنطق البشري ومن الضروري أن نضيف أنه لا يوجد أي **rationalism (المَذْهَبُ العَقْلانِيّ)** في الفلسفة الإغريقية القديمة. يبرهن القديس غريغوريوس استحالة تخطّي هذه الحدود واستيعاب غير المخلوق **عن طريق معرفة المخلوق.**

القديس باسيليوس الكبير أشار إلى التمييز والتراتبية الموازية لِنَوْعَيِ المعرفة في قوله أن الإيمان يجب أن يتقدم على الكلمات المتعلقة بالله والبراهين التي يصنعها العقل. الإيمان ينشأ من عمل وقوة الروح القدس. الإيمان

عند **القديس باسيليوس** هو إنارة الروح القدس في القلب (P.G. 30,104B-105B). وهو يعطي أيضًا مثالًا كلاسيكيًا حول استعمال الأرثوذكس للمعرفة العلمية في **كتابه الأيام الستة عن الخلق** (Hexameron (P.G. 29, 3-208) . إنها **(repudiates أي رفَض وعدم موافقة)** لنظريات الفلاسفة الكونية والوقائع العلمية ومن خلالها يتخطى العلم. إلى هذا، برفضه التعاليم المادية والهرطوقية يصل القديس باسيليوس الكبير **إلى التفسير اللاهوتي، وليس الماورائي،** لطبيعة الخليقة. الرسالة المركزية في هذا العمل هي أن الدعم المنطقي للعقيدة مستحيل استنادًا إلى العلم. العقيدة تنتمي إلى جو sphere آخر. إنها فوق المنطق والعلم، ولكنها ضمن حدود معرفة أخرى. استعمال العقائد مع المعرفة الدنيوية يقود إلى تحويل العلم إلى الماورائيات. بينما استعمال العقل في مجال الإيمان يثبت ضعفه ونسبيته. إذًا ليس هناك قناعة لا يتم البحث عنها في المعرفة الأرثوذكسية، ولكن كل حقل يُبحَث فيه بمواصفاته الخاصة: العلم بافتراضاته والمعرفة الإلهية بافتراضاتها.

أَتْعَسُ تَعْبِيرٍ عن تغرُّب الجسم المسيحي هو المقاربة الكنسية **لغاليلو في الغرب،** حيث تَخَطَّتْ الحالة حدود القوانين. ولكن الأمر هو أكثر جدية حيث أنه خلط حدود المعرفة وتضاربها. إن فقدان الحكمة التي من فوق **في الغرب** وطريقة تحقيق هذا أدّى إلى استعمال العقل كوسيلة ليس فقط **للحكمة البشرية** بل أيضًا **للإلهية**. استعمال العقل في حقل العلم يؤدي، بشكل لا يمكن تلافيه، إلى رفض ما فوق الطبيعة وفوق الفهم، واستعماله في حقل الإيمان يؤدي إلى رفض العلم حين يتضارب مع الإيمان. طريقة التفكير نفسها وانعدام الأسس أيضًا ظهرت **في رفض نظام كوبرنيكوس في الشرق**. العلم بدوره انتقم من **إدانة الكنيسة الرومانية لغاليلو في شخص داروين مع نظريته في التطور.**

هـ) الزرع الاصطناعي للمسألة الغربية في الشرق الأرثوذكسي

يتألف التنوير الأوروبي من صراع بين الاختبارية الفيزيائية وماورائيات **أرسطو**. التنويريون هم فلاسفة وهم مفكرون أيضًا. التنويريون اليونان مع **أدمانتيوس كورياس** كمتقدم عليهم، كانوا ماورائيين في لاهوتهم وهم مَن نقل الصراع بين الاختباريين والموراثيين إلى اليونان. في أي حال، **رهبان الجبل المقدس الأرثوذكسيون، الكوليفاد وغيرهم من الآباء الهدوئيين، بقوا اختباريين في طريقتهم اللاهوتية**. إدخال الماورائيات في لاهوتنا الشعبي والأكاديمي سببه، بشكل رئيسي **كورياس**. ولهذا السبب أصبح مرجعية لدى لاهوتيينا الأكاديميين كما لدى الحركات الأخلاقية الشعبية. هذا يعني أن تطهير القلب لم يعد يُعتَبَر شرطًا مُسبقًا للاهوت. وأخذت التربية **السكولاستيكية** موضعه. الشيء نفسه جرى في **روسيا** على أيام **بطرس الأكبر** (القرنان ١٧-١٨). إذًا الآباء اعتُبِروا فلاسفة **(أفلاطونيين جُدُدًا بِشَكْل رئيسي كأوغسطين مثلًا)**، وناشطين اجتماعيين. هذا أصبح المثال الأول للتقويين في اليونان بالإضافة إلى هذا، رُفضَت الهدوئية على أنها ظلامية. **أفكار كورياس** التقدمية تنشأ من أنه كان داعمًا **للكالڤينية** وليس لاستعمال الرومان الكاثوليك للماورائيات، وأعماله اللاهوتية محملة بهذه التقوية (الأخلاقية) الكالڤينية.

ملحوظة: {**الكالڤينيّة والمعروفة أيضًا باللاهوت المصلح هي مذهب مسيحي بروتستانتي يُعْزَى تأسيسه للمصلح الفرنسي جون كالڤين، وكان هذا الأخير قد وضَع بين عامي ١٥٣٦م و ١٥٥٩م مؤلّفه (مبادىء الإيمان المسيحي) والذي يعتبره الكثيرون من أَهم ما كُتِبَ في الحركة البروتستانية**}(جمعية نور المسيح).

في أي حال، بالنسبة للآباء، الأرثوذكسية هي ضد الماورائيات كونها تبحث باستمرار عن الواقع الاختباري بالطريقة الهدوئية. لهذا السبب هدوئية الكوليفذ هي اختبارية وعلمية. النسبة بحسب **القديس نيقوديموس الأرثوسي** هي اختبارية. هذا يظهر في طريقة قبول هدوئيي القرن الثامن عشر للتقدم العلمي في الغرب، فَهُمُ اعترفوا بالنظريات العلمية كما فعل، على سبيل المثال، **القديس نيقوديموس** في عمله Symbouletikon حيث يقبل بآخر نظريات زمانه حول عمل القلب. **القديس أثناسيوس باريوس** لا يحارب العلم نفسه بل استعماله من قِبَل **التنويريين المتغربنين في الأمة اليونانية**. فهم رأوا العلم كعمل الله وكتقدمة لتحسين الحياة. لكن **لاهوتيِّي** القرنين الثامن عشر والتاسع عشر التقليديين قاوموا استعمال العلم في صراع ماورائي ضد الإيمان، كما كانت الممارسة في الغرب. تكمن الأخطاء من جانب **التنويريين اليونان** الذين ، بدون أي علاقة مع الآراء الآبائية حول المعرفة، مع أن بعضهم كان من الكهنة والرهبان، نقلوا الصراع الأوروبي بين الماورائيين والاختباريين إلى اليونان، متكلمين عن الدين غير العقلاني. في حين أن آباء الأرثوذكسية في تمييزهم بين نوعي المعرفة يميزون في الوقت نفسه بين العقلي والفائق العقل.

مشكلة الصراع بين العلم والإيمان، بمعزل عن تضارب المعرفة، أدّى إلى تأليه نَوْعَيِ المعرفة. وهكذا نشأ دفاع ضعيف ومَرَضي في المسيحية **(مثلًا أحد أساتذة الدفاعيات كتب برهانًا حسابيًا عن وجود الله!)**. في الأرثوذكسية في كل حال هذه الازدواجية ليست قائمة بذاتها. لا شيء يستثني تعايش الإيمان والعلم عندما لا يكون الإيمان ماورائيات خيالية، ولا يشوه العلم وجهه الإيجابي باستعمال الماورائيات. التفاهم المتبادل بين العلم والإيمان يتقوى باللغة العلمية المعاصرة.

مبدأ اللاحتمية (انعدام السببية) هو نوع من apophatism في العلم. عليه، العودة إلى الآباء تساعد في تخطي الصراع. قبول محدودية نوعي المعرفة **(غير المخلوقة والمخلوقة)** واستعمال العضو المناسب أو الطريقة الملائمة لكل منهما، هو العنصر الأرثوذكسي والآبائي الذي يضع الحكمة الأرضية تحت المعرفة الإلهية.

على العكس، إن تضارب نوعي المعرفة **في الفكر الغربي** يعزِّز سوء التفسير المتبادل بينهما ويتابع ويقوي صراعهما. إن كنيسة متمسكة باللاهوت الماورائي سوف تبقى دائمًا مضطرة لطلب السماح من **غاليلو**. كما أن عِلمًا يهمل حدوده سوف يتقهقر إلى الماورائيات وسوف يعالج **وجود الله**، ما ليس من مسؤوليته، أو سوف **ينكر الله** كليًا.

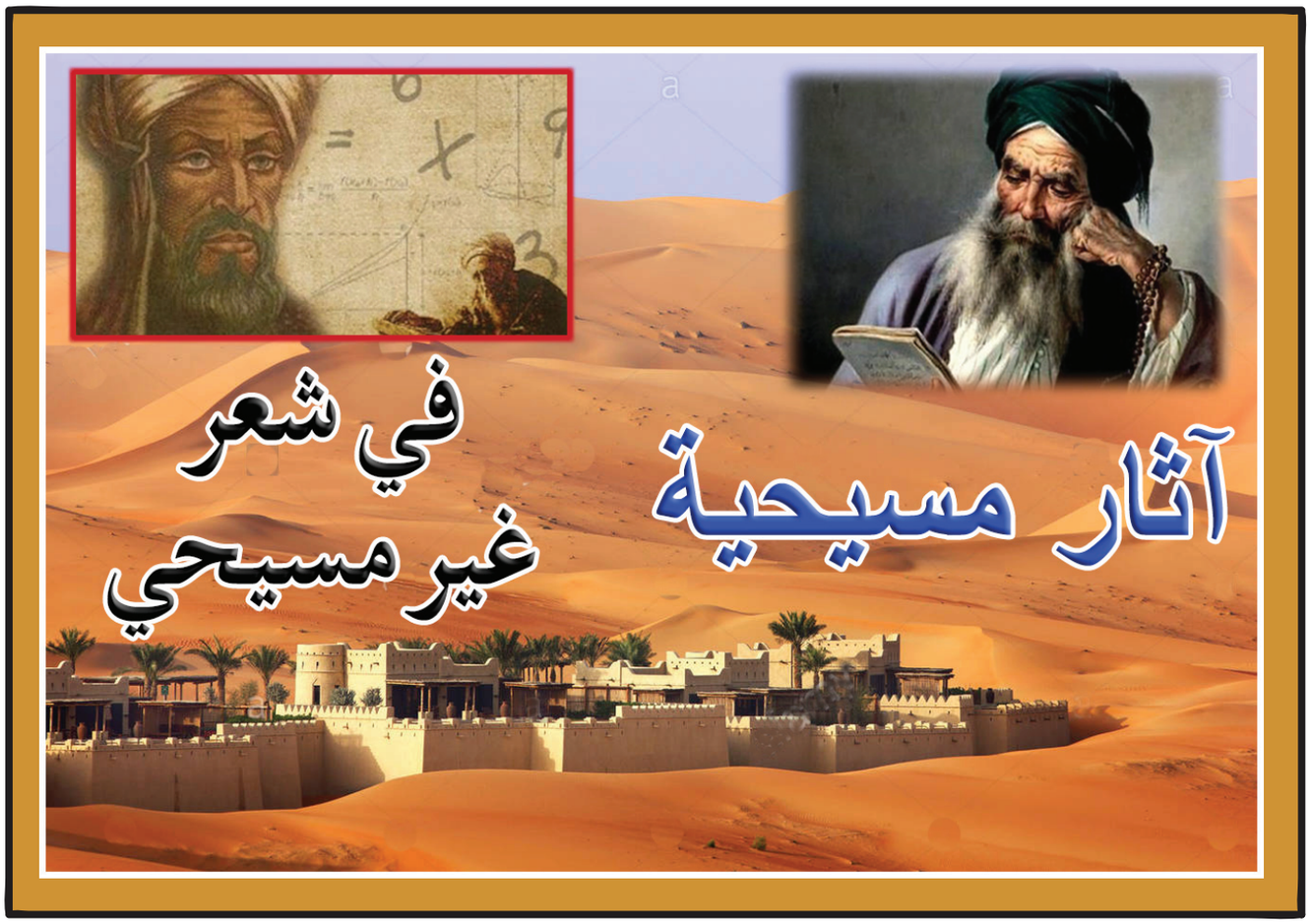

مَن أراد التعرّف إلى الأُدباء الذين تأثّروا **بقضية الشّاعر المتصوّف الحُسَين بن منصور الحَلّاج** ، يمكن وضع اسمه في أحد محرّكات البحث ليحصل على أخبار كثيرة عنه، وإن نُقِل القليل من أدبه وفلسفته شِعرًا ونثرًا، لأنّ هذه المقالة غير مخصّصة لعرض قضيّة الحلّاج، وإن أشار إليها الجزء الأوّل باهتمام، وإن شغلت مساحة غالبيّة الجزء الثاني، إنما عَرْض الآثار المسيحيّة التي تركها الشُّعراء القدامى والجُدُد في قصائدهم؛ سواء أكانت الآثار ظاهريّة سهلة الفهم أم باطنيّة تلزم التأمل والتعمّق لسَبْر أغوارها. وقد ذكرت في الجزء الأوّل أهمّ مرجعَين لموضوع المقالة بقلم الأب لويس شيخو اليسوعي، **متيسِّرَين عبر الانترنت**؛ إذ تقفّى هذا الباحث الكبير **خُطَى قبائل عربية مسيحيّة معروفة قبل ظهور الإسلام وبعده**، مستشهدًا بمقتطفات من أقوال **شعراء النصرانيّة العرب**، المشهورين منهم وغير المشهورين، منذ القرن الخامس الميلادي حتى **نهاية الدولة العبّاسيّة**. وقد اكتفيت بذِكر آثار الحلّاج المسيحيّة، من جهة الشِّعر القديم، ليحين دور بعض الآثار الواضحة في الشعر الحديث، لأنّ المقالة لا تتسع لعرض جميع الآثار. وبالمناسبة؛ رأيت أنْ لا بأس في عرض أحد الآثار المسيحيّة في الشعر الحديث ممّا يمتّ إلى **ثورة الحلاج** ومأساته بصِلة وثيقة ولافتة، هو ما تركه لنا **شاعر العراق الكبير عبد الوهاب البَيّاتي** (١٩٢٦ – ١٩٩٩ م) إذ رأى في تاريخ **نضاله الإنساني الطويل** امتدادًا ما لسيرة الحلّاج وغيره. عِلمًا أن سيرة كلّ من **الحلّاج والبيّاتي**، وسائر الشخصيّات التي تركت آثارًا شديدة الوقع في النفوس، لا تسعها مقالة واحدة في ويكيبيديا بل مقالات، ولا دراسة هنا وأخرى هناك بل دراسات. وعِلمًا أنّ الهدف من عرض الآثار المسيحيّة هو **تبشيري بحت**، إذ بُشِّرَ بخلاص المسيح وبالحياة الأبديّة مع المسيح تلاميذُهُ ورُسُلُهُ، كُلٌّ بحسب إرشاد الرّوح القدس له. فمَن يظنّ أن القَصد من هذا العرض هو «الدفاع» عن الله (إله الكتاب المقدّس) أو عن المسيح والمسيحيّة **يكُنْ مُخطئًا وقارئًا كتابًا مِن غلافه**، إنما رأيت في كلّ أثر من الآثار **شهادة حيّة للمسيح ولصليبه المقدّس**، سواء أكان قصد الشّاعر تبشيرًا أم استيحاءً من سيرة **المسيح** ، وتوظيفَ مقتطفات منها في شِعْرِهِ وتوظيف عدد من أقواله وأعماله.

✝ ✝ ✝

مقتطفات عامّة من شعر البَيّاتي

من قصيدة "**عذاب الحلاج**" التي كتبها البيّاتي في القاهرة سنة ١٩٦٤ م

حَكَمْتَ بالمَوت عَلَيَّ قبلَ ألْف عامْ

وها أنا أنامْ

منتظِرًا فجْرَ خَلاصي، ساعةَ الإعدامْ

❁ ❁ ❁

مائدتي، عَشائِيَ الأخيرُ في وَليمة الحَيَاهْ

فآفتَحْ لِيَ الشُّبّاكَ، مُدَّ لي يَدَيكَ آهْ... إلخ...

– بحر الرَّجَز

من قصيدة «قراءة في كتاب الطواسين للحلاج» في ديوان البيّاتي: قمر شيراز.

لماذا يا أبتي أُنفى في هذا الملكوت؟

❁ ❁ ❁

أجيالٌ وقوافلْ
أُمَمٌ وممالكْ
أهْلَكَها الطّوفانْ

❁ ❁ ❁

ثوراتُ الفقراءْ
يسرقُها، في كلّ الأزمان، لصوصُ الثوراتْ

❁ ❁ ❁

زاباتا (١) كان مثالًا ومئاتُ الأسماء الأخرى
في قاموس القدّيسِينَ الشّهداءْ

❁ ❁ ❁

فلماذا يا أبتي صُلِب الحلّاج؟... إلخ...

– بحر الخبَب

✝ ✝ ✝

قصيدة «إلى عام ١٩٥٧» للبيّاتي في مناسبة عيد الميلاد

واغرورقتْ عيناهُ بالدموعْ
وقالَ لي: يَسُوعْ
بالأمسِ مرَّ من هنا، يسوعْ
صليبُهُ غُصنانِ أخضرانِ مُزهِرانْ
عيناهُ كوكبانْ
طَلْعَتُهُ حمامةٌ، مِشْيَتُهُ أغانْ
بالأمسِ مَرَّ مِن هنا
فأزهَرَ البستانْ
وٱستيقظَ الأطفالُ، لا أحلى
وفي السماءْ
كانت نجومُ الليلِ كالأجراسِ كالصّلبانْ
غرقى بدمعي كانت الأحزانْ
طريقُنا للحبّ والنّسيانْ
وأرضُنا الخضراءُ في مخاضها مُثخَنةُ الجِراحْ
تحلمُ بالزّنبق والصّباحْ
تحلُمُ في ألفِ يسوع سوف يَحمِلونْ
صليبَهُمْ في ظُلمةِ السّجونْ
وسوف يكثرونْ
وسوف يُنجِبُونْ
ذُريّةً تزرعُ أرضَ الله ياسمينْ
تصنعُ أبطالًا وقدّيسينْ
تصنعُ ثائرينْ

– بحر الرَّجَز

✝ ✝ ✝

المسيح الذي أُعيد صَلبُه

كتبها البيّاتي في دمشق سنة ١٩٥٨ م

إلى السيدة جميلة بوحيرد المناضلة الجزائريّة

من مواليد ١٩٣٥ م ،

والقصيدة منشورة في مجموعته «كلمات لا تموت» الصادرة في بيروت سنة ١٩٦٠ م .

إنّ طَعْمَ الدم في صوتي
وفي أبيات أشعاري الشقيّهْ
مِثْلُ سَدٍّ يقفُ الليلة ما بيني وبين البربريَّهْ
إنّ جيلًا كاملًا ماتَ نهارَ اليوم يا أختي الصّبيَّهْ
يا جميلهْ
إنّ ثلجًا أسودًا يغمر بستان الطفولهْ
إنّ بَرقًا أحمرًا يحرق صُلبانَ البطولهْ
إنّ حرفًا ماردًا يولد في أرض الجزائرْ
يولد الليلةَ لم تظفرْ به ريشةُ شاعرْ

– بحر الرَّمَل

✝ ✝ ✝

صليب الألم

كتبها البيّاتي سنة ١٩٥٠ م.

فِي طَرِيقِي إِلَى الظَّلَامِ البَعِيدِ صَلَبَ اللَّيلُ بِالفَراغِ وُجُودِي

❁ ❁ ❁

كَمْ مَشى قَيْصرٌ عَلَيَّ لِنَصرٍ وَتَغَنَّى بِمَجْدِ فِرْعَوْنَ عُودِي
وبَنَيتُ الأهْرَامَ وَالقَيْظُ يَشْوِي رَأْسِيَ المُتْعَبَ الحَزِينَ وَجِيدِي
وَلَثَمْتُ الأَيْدِي الَّتِي لَطَمَتْنِي وَتَفَانَيْتُ فِي هَوَى مَعْبُودِي

❁ ❁ ❁

يَا صَلِيبَ الْعَذَابِ خُذْنِي حُطَامًا وَيْكَ خُذْنِي إِلَى صَلِيبٍ جَدِيدِ

– بحر الخفيف

وَيْ: كلمة تعجُّبٍ. ويقال: وَيْكَ ووَيْ لعبد الله. وقد تدخل وَيْ على كأن المخفَّفة والمشدَّدة، تقول: وَيْ كأنْ، ووَيْ كأنَّ – قاموس الصّحّاح في اللغة.

❁ ❁ ❁

أخيرًا؛ هكذا اعتمد **البيّاتي** وعدد من أترابه **رواية الصّلب الإنجيليّة** دون غيرها، **على رغم خلفيّاتهم الدينيّة غير المسيحيّة**. وقد عاش مغتربًا في **دمشق وبيروت وموسكو والقاهرة واسپانيا ثم عمّان** قبل انتقاله آخر المطاف الى سورية حيث توفّي هناك سنة ١٩٩٩ م. عِلمًا أني تشرّفت بلقاء قصير معه في **عمّان** (كاتب المقال)، قبل نهاية العام ١٩٩١ إذ رأيته بالصدفة جالسًا في الساحة الهاشميّة مع أحد أصدقائه (أو أحد أقاربه) وما عرفته بالقدر الذي عرفت **السّياب ونازك الملائكة من روّاد الشّعر الحُرّ**، ولا قرأتُ من شعره المسموح به في عراق تلك الفترة سوى مجموعة واحدة هي «**أباريق مهشّمة**» فقادني الفضول إلى معرفته عن كثب فسلّمتُ عليه وصافحتُه وأذِن لي بالجلوس وبالتقاط صورة معه ما زلت معتزًّا بها، ثمّ أنشدتُهُ شيئًا مِن شعري العمودي عن قصد، لأنّ الذي وصلني عنه من شائعات هو ازدراؤه الشعر العمودي! ففوجئتُ بإعجابه بالقصيدة، إذ كانت على وزن المنسرح، بل قال البيّاتي – رحمه الله– ما معناه: (هذه القصيدة يجب أن تُنشَر؛ إذا زُرتَ جريدة الرأي وتحديدًا رئيس قسمها الثقافي ابراهيم العجلوني فلطفًا انقلْ لهُ تحيّتي: يُسلّم عليك أبو علي)؛ ففعلت وقد استقبلني الأديب ابراهيم العجلوني مُرَحِّبًا، ثمّ نُشِرت القصيدة في مُلحَق الجريدة: الرأي الثقافي، هي الوحيدة المنشورة لي في الأردنّ. ذلك في وقت تشرّفت أيضًا بلقاء الأديب الأردنيّ الكبير روكس العزيزي (٢) في منزله **بعمّان**.

❁ ❁ ❁

١) إيمليانو زاباتا (١٨٧٩ – ١٩١٩ م) **من قادة الثورة المكسيكية التي اندلعت** سنة ١٩١٠

٢) روكس بن زائد العزيزي (١٩٠٣– ٢٠٠٤ م) من عشائر العزيزات المسيحيّة الأردنيّة ومن أحفاد الغساسنة، له نحو ثمانين كتابًا، رئيس رابطة الكتّاب الأردنيّين عام ١٩٧٦ وممثل الرابطة الدولية لحقوق الإنسان في الأردن منذ عام ١٩٥٦ حتى وفاته. وقد أطلقت أمانة عمّان اسمه على أحد شوارعها تكريمًا له.

نشيد للعذراء – للقديس رومانُس المرنّم

إن المولود قبل كوكب الصبح من الآب بلا أم، تجسَّد اليوم على الأرض منكِ بلا أب. لذلك الكوكب يبشر المجوس بولادتكِ التي لا توصف، وملائكة مع الرعاة يسبحونكِ، **أيَّتُها الممتلئة نعمة**. إن الكرمة أفرعت عنقودًا بدون فلاحة، وحملته في أحضانها كأنّها على غصن، وقالت: «**أنتَ ثمرتي، أنتَ حياتي**». أنا ما عرفتُ كيف حَبِلْتُ وكيف وافيتَ مني وبقيتُ عذراء. تَرَكْتَ أحشائي كما وجدتَها وَحَفِظْتَها سالمة. لذا تفرح الخليقة كلها بي وتهتف: **أيتها الممتلئة نعمةً**.

أيُّها السيِّد، ما أنكرتُ نعمتك وقد اختبرتها، لم أحتقر الشرف الذي أحرزتُه حينما ولدْتُكَ. بتنازُلِكَ، حوّلتَ **فقري إلى غِنًى**. وضعتَ ذاتك فرفعتَ جنسي. فالآن افرحي معي يا أرضُ ويا سماءُ لأني أحمل خالقك في يدي. يا ساكني الأرض، ابعدوا المحزنات، وشاهدوا فرحًا أفرعتُه من أحشائي الطاهرة فسمعتُ: **أيتها الممتلئة نعمةً**.

أجابَ المُبدِع: غلبني الحب، حبي للإنسان. أنا يا أمي، أنا لا أُحزنك، بل سأعلمك ما أريد أن أُتِم، سأدفق الطمأنينة على نفسك، **يا مريم**. بعد زمن ستبصرينني أنا من تحملينه في يديك، مُسمَّر اليدين وذلك حُبًا بالبشر. ومن أنتِ ترضعين سيسقيه آخرون مرارة، والذي تقبّلين سوف يحتمل إهانات ولطمات، ومن تدعينه حياة ستنظرينه معلقًا على الصليب، وستبكينه كمائت. سَتُقَبِّلِينَنِي عندما أنهض **أيتها الممتلئة نعمةً**.

طوعًا سأتحمل هذه الآلام كلها. وسبب هذه الآلام سيكون قصدي الصالح، الذي من قديم وإلى الآن لا أزال أُظهره، بما أني إله، لأخلص البشر.

عندما سمعت مريم هذه الأقوال تنهدت من الأعماق وبكت.

فهتف الطفل نحوها قائلًا: كفكفي الدموع يا أُمي، ولا تبكي ما تجهلين. فإن لم يتمّ هذا الأمر، **فالبشر جميعهم يهلكون**. صدقي يا أمي، إنَّ موتي هو رقاد. وعندما أكمل طوعًا ثلاثة أيام في القبر أظهر لك حيًّا لأُعيد تجديد الأرض، وتجديد أبناء الأرض. بشّري بهذا يا أمي، بشري الجميع.

للحال خرجت مريم إلى عند آدم وحواء تحمل لهما البشرى وتقول: اخْلُدَا قليلا إلى السكينة واسمعاه يقول إنه سيحتمل الآلام لأجلكما أنتما الهاتفين إليّ: **أيتها الممتلئة نعمةً**.

المعمودية وظهور الرَّبِّ

للقديس كيرلّس الأسكندري

«وَلَمَّا اعْتَمَدَ جَمِيعُ الشَّعْبِ اعْتَمَدَ يَسُوعُ أَيْضًا. وَإِذْ كَانَ يُصَلِّي انْفَتَحَتِ السَّمَاءُ، وَنَزَلَ عَلَيْهِ الرُّوحُ الْقُدُسُ بِهَيْئَةٍ جِسْمِيَّةٍ مِثْلِ حَمَامَةٍ. وَكَانَ صَوْتٌ مِنَ السَّمَاءِ قَائِلاً:«أَنْتَ ابْنِي الْحَبِيبُ، بِكَ سُرِرْتُ». وَلَمَّا ابْتَدَأَ يَسُوعُ كَانَ لَهُ نَحْوُ ثَلاَثِينَ سَنَةً» (لو٣: ٢١ – ٢٣).

هيا بنا أيضًا ، لكي نُركِّز أذهاننا عن قصد على الكُتب الإنجيلية وذلك لكي ننظر جمال الحقّ. تعالوا بنا لنوجِّه عيون عقولنا الفاحصة المدقِّقة نحو سِرّ المسيح، ولننظر بدهشة مهارة التدبير الإلٰهي العجيبة فإننا بهذا سَنَرَى مجده. وعندما نعمل هذا فإنه يهبنا حياة لنفوسنا، كما أكَّد لنا هو نفسه حينما كان يتحدث إلى الآب السماوي بِقَوْلِهِ: «وَهذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ.» (يو١٧: ٣). إذن فكيف أُرْسِلَ؟ وما هي طريقة مجيئه إلينا؟ لأنه إذ هو **بالطبيعة الله** الذي يملأ الكُلّ ، فكيف كما يقول **المبارك يوحنا الإنجيلي**: «كَانَ فِي الْعَالَمِ، وَكُوِّنَ الْعَالَمُ بِهِ، وَلَمْ يَعْرِفْهُ الْعَالَمُ.» (يو١: ١٠)، وهو نفسه الرب ؟ وكيف أُرسل من الآب، في حين أنه كإله هو خالق كل الأشياء وحافظها؟ لأن الأشياء قد تأسَّسَت بواسطته.

إن **الحكيم يوحنا الإنجيلي** يعلمنا قائلًا: «وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَدًا» . ولكن ربما يقول أحد: «**ماذا إذن ؟ هل كَفَّ عن أن يكون هو الكلمة؟ وهل تغيَّر الجسد ؟ هل سقط من جلاله ؟ وهل جرى له تحوُّل إلى شيء لم يكن عليه سابقًا ؟** ». إننا نقول ليس الأمر هكذا ، حاشا من ذلك. لأنه بالطبيعة غير قابل للتغير. لذلك فبقوله «وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَدًا» (يو١: ١٤) ، فإن الإنجيل يعني أنه صار إنسانًا مثلنا. لأنَّنا نحن أنفسنا أيضًا كثيرًا ما نُدعى جسدًا، لأنه مكتوب «ويبصر كل جسد خلاص الله» (إش٤٠: ٥ السبعينية) ويعني به أن كل إنسان سيبصر خلاص الله، لذلك فبينما هو يحتفظ بما كان عليه بدون تغيير، إلَّا أنَّه إذ صار في حالتنا فإنه أخذ شبهنا، ولذلك يُقال أنه قد صار جسدًا .

أنظروه إذن كإنسان، وهو يحتمل معنا الأمور التي تختص بحالة الإنسان، أنظروه وهو يكمل كل بِرّ، لأجل خطة الخلاص. وهذا أنت تتعلمه مما يقوله الإنجيل: «وحدث أنه لما اعتمد جميع الشعب اعتمد يسوع أيضًا، وصلى». فهل كان هو أيضًا في احتياج إلى المعمودية المقدسة. وأية منفعة تحصّل له منها ؟ إنَّ كلمة الله الوحيد هو قدوس من القدوس. وهكذا يدعوه **السيرافيم** في تسابيحهم ، وهكذا يدعوه الناموس في كل مكان، ومحفل الأنبياء القديسين يتفقون في هذا مع كتابات موسى. ما الذي نحصل عليه نحن من المعمودية المقدسة؟ واضح أنه غفران خطايانا. ولكن يسوع لم يكن فيه شيءٌ من **الخطيّة** ، «الَّذِي لَمْ يَفْعَلْ خَطِيَّةً، وَلاَ وُجِدَ فِي فَمِهِ مَكْرٌ (غِشٌ)» (١بط٢: ٢٢)، كما يقول الكتاب: «هُوَ قُدُّوسٌ بِلاَ شَرّ وَلاَ دَنَسٍ، قَدِ انْفَصَلَ عَنِ الْخُطَاةِ وَصَارَ أَعْلَى مِنَ السَّمَاوَاتِ» (عب٧: ٢٦)، بحسب كلمات بولس الإلهي.

ولكن ربما يقول أحد من غير المتدربين في الإيمان: «**هل هو إذن كلمة الله الذي اعتمد؟. هل كان هو محتاجًا أن يصير مشتركًا في الروح القدس؟ أبدًا بالمرَّة، لذلك فهذا هو ما نؤكده أن الإنسان الذي كان من نسل داود اتحد معه «بالمصاحبة» هو الذي اعتمد ونال الروح** » (١).(هذا ما يقوله نسطور الهرطوقي).

إذن فأنتم قد قسمتم غير المنقسم **إلى ابنين**، ولأنه اعتمد **في سن الثلاثين سنة** فقد صار مقدسًا بواسطة المعمودية كما تقولون. فهل هو لم يَكُن مُقَدَّسًا إلى أن وصل إلى **سن الثلاثين** ؟ من الذي يوافقكم على هذا، إذ أنتم تُفسدون الإيمان المستقيم الذي بلا لوم ؟

لأنه يوجد «رَبٌّ وَاحِدٌ: يَسُوعُ الْمَسِيحُ» (١كو٨: ٦).كما هو مكتوب ، ولكننا نؤكد هذا : أنه لم يكن منفصلًا عنه ، **وكان هو نفسه حينما اعتمد وصار مشتركًا في الروح القدس، لأننا نعرف أنه الله ، وبلا عيب، وقدوس من قدوس** ، لأننا نعترف أنَّنَا «وَمِنْ مِلْئِهِ نَحْنُ جَمِيعًا أَخَذْنَا» (يو١: ١٦). لأن الروح القدس ينبثق حقًا من الله الآب ، ولكنه «خاص بالابن أيضًا». وكثيرًا ما يُدعى «روح المسيح» ، رغم أنه منبثق من الآب . وهذا ما يشهد له بولس قائلًا: « فَالَّذِينَ هُمْ فِي الْجَسَدِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُرْضُوا اللهَ. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلَسْتُمْ فِي الْجَسَدِ بَلْ فِي الرُّوحِ، إِنْ كَانَ رُوحُ اللهِ سَاكِنًا فِيكُمْ. وَلكِنْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَيْسَ لَهُ رُوحُ الْمَسِيحِ...» (رو٨: ٨–٩). وأيضًا يقول: « بِمَا أَنَّكُمْ أَبْنَاءٌ، أَرْسَلَ اللهُ رُوحَ ابْنِهِ إِلَى قُلُوبِكُمْ صَارِخًا:«يَا أَبَا الآبُ» (غلاطية ٤: ٦). لذلك فالروح القدس ينبثق حقًا من الله الآب كما قلت، ولكن كلمته الوحيد، « لكونه بالطبيعة هو الابن حقًا »، وهو يلمع بأمجاد الآب، فإنه يعطيه (الروح القدس) للخليقة ، ويمنحه لأولئك الذين يستحقون. لذلك فقد كان حقًا ما قاله : « كُلُّ مَا لِلآبِ هُوَ لِي.» (يو١٦: ١٥).

ولكننا نَرُدّ على أولئك الذين لا يقبلون الإيمان الصحيح ، بهذا السؤال: « كيف يستطيع ذاك الذي نال الروح، إن كان هو حسب قولكم ، إنسانًا مُنفصلًا ومستقلًا بنفسه، كيف يستطيع أن يُعمِّد بالروح القدس ويُعطي الروح القدس للذين يعتمدون؟». لأن القدرة مع غيرها من الصفات الأخرى هي خاصيَّة مميزة لله القدير وحده. ولكن ذلك الذي

أعطى الروح كان إنسانًا ، لأن يوحنا الإنجيلي الحكيم يقول: «يُوحَنَّا (المعمدان) شَهِدَ لَهُ وَنَادَى قِائِلاً:«هذَا هُوَ الَّذِي قُلْتُ عَنْهُ: إِنَّ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي صَارَ قُدَّامِي، لأَنَّهُ كَانَ قَبْلِي» (يو ١:١٥). والإنجيلي لوقا يقول:«أَجَابَ يُوحَنَّا (المعمدان) الْجَمِيعَ قِائِلاً: «أَنَا أُعَمِّدُكُمْ بِمَاءٍ، وَلكِنْ يَأْتِي مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي، الَّذِي لَسْتُ أَهْلاً أَنْ أَحُلَّ سُيُورَ حِذَائِهِ. هُوَ سَيُعَمِّدُكُمْ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ وَنَارٍ.» (لو٣:١٦). فكما أنه غير لائق بالله الكلمة، بصفته الله الكلمة أن يقترب من المعمودية المقدسة ويصير مشتركًا في الروح، هكذا بنفس الطريقة فإنه لا يُصَدَّق إطلاقًا، بل بالحري أنه من المستحيل أن نؤمن بأن القدرة على تعميد الناس بالروح القدس هي **من عَمَلِ مجرد إنسان** لا يزيد عنا في أي شيء .

كيف إذن يكون السِرّ حقيقيًا ؟ إنه لأجل مساعدتنا اتخذ نوعًا من التكيّف. **فالكلمة الإلهي صار إنسانًا**، كما يقول بولس الحكيم جدًا: «الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً للهِ. لكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذًا صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِرًا فِي شِبْهِ النَّاسِ.» (فيلبي ٢:٦-٧) ، ووضع نفسه إلى الفقر. فأبْحثوا إذن، من هو ذلك الذي كان أولًا في صورة الله الآب، وهو في الحقيقة مساوٍ له، ولكنه **أخذ صورة عبد**، وحينئذ صار إنسانًا. وإلى جانب ذلك جعل نفسه فقيرًا. هل هو الذي من **نسل داود** كما يجادلون، الذي يعتبرونه منفصلًا بنفسه كأبن آخر، مختلفًا عن كلمة الله الآب ؟ إن كان كذلك فدعهم يبينون متى كان مُساويًا للآب ؟ دعهم يُبيِّنون كيف اتخذ صورة عبد؟ أو ماذا سنقول عن ماهية صورة العبد تلك؟ وكيف أخلى نفسه؟ فهل يوجد ما هو أفقر من الطبيعة البشرية؟ لذلك فالذي هو صورة الله الآب وشبهه والتعبير لواضح عن شخصه، والذي يشع ببهاء في مساواةٍ معه، والذي هو بالطبيعة حُرٌّ، وَنِيرُ ملكوته موضوع على كل الخليقة . هذا هو نفسه الذي اتخذ صورة عبد، أي صار إنسانًا، وجعل نفسه فقيرًا إذ رَضِيَ أن يحتمل هذه الأمور البشرية ماعدا **الخطيّة** .

إنَّهم يعارضون قائلين: ولكن كيف اعتمد ونال الرُّوح أيضًا ؟ **فنجيبهم**: إنه لم يكن مُحتاجًا للمعمودية المقدَّسة إذ هو **كليّ النقاوة وبلا عيب ، وقدوس من قدوس**. كما أنَّه لم يكن مُحتاجًا للروح القدس، لأن الروح المنبثق من الآب ومساوٍ له في الجوهر. ولذلك يجب أن نستمع الآن إلى شرح التدبير أي خطة الله : إن الله في محبته للإنسان زودنا بطريقٍ للخلاص والحياة. لأننا بالإيمان بالآب والابن والروح القدس وباعترافنا بهذا الإقرار أمام شهود كثيرين، فإننا نغسل كل **وسخ الخطية ونغتني بالحصول على الروح القدس** «وَنَصِيرُ شُرَكَاءَ الطَّبِيعَةِ الإِلهِيَّةِ» (٢بط١:٤)، وننال نعمة التبني. لقد كان ضروريًا إذن أن كلمة الآب حينما وضع نفسه إلى الإخلاء، وتنازل ليتخذ شكلنا، كان ضروريًا أن يصير من أجلنا نموذجًا وطريقًا لكل عمل صالح.

فالذي هو الأول في كل شيء ينبغي أيضًا أن يضع نفسه مثالًا في هذا. لذلك فلكي نعرف **قوة المعمودية المقدسة نفسها والنعمة العظيمة التي نحصل عليها بالإقبال إليها**، فإنه يبدأ هذا العمل (المعمودية) بنفسه، وحينما اعتمد صَلَّى لكي تتعلموا أنتم يا أحبائي أن «الصلاة بلا انقطاع» هي أمرٌ مناسبٌ جدًا لأولئك الذين حُسبوا أهلًا للمعمودية المقدسة.

ويقول الإنجيلي أن السماء قد انفتحت كما لو كانت مُغلقة طويلًا. وقد قال السيِّد المسيح : «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مِنَ الآنَ تَرَوْنَ السَّمَاءَ مَفْتُوحَةً، وَمَلاَئِكَةَ اللهِ يَصْعَدُونَ وَيَنْزِلُونَ عَلَى ابْنِ الإِنْسَانِ». (يو١:٥١). لأن الجمهور الذي فوق (الملائكة)، والجمهور الذي تحت قد صار الآن واحدًا، وصار رئيس رعاة واحد للكل، والسماء قد انفتحت والإنسان على الأرض جُعل قريبًا من الملائكة القديسين. والروح أيضًا نزل ، إذ «كبداية ثانية لجنسنا» جاء على المسيح أولًا الذي ناله ليس لأجل نفسه، بل لأجلنا، لأننا بواسطته (المسيح) وفيه نغتني بكل الأشياء. لذلك فإنه من المناسب جدًا لتدبير النعمة أن يحتمل معنا الأمور الخاصة بحالة الإنسان، وفي أي وضع آخر سنراه في إخلاء، ذلك الذي بطبيعته الإلهية هو الملء نفسه؟، وكيف صار فقيرًا مثلنا إن لم يتطابق مع فقرنا؟ وكيف أخلى نفسه إن كان يرفض أن يحمل مقاييس صغر الإنسان ؟ .

لذلك ، فإذ قد اتخذنا المسيح كمثال لنا، فلنقترب من نعمة المعمودية المقدسة، لكيما نحصل على دالة الصلاة بلا انقطاع، ونرفع أيادي مقدسة إلى الله الآب، لكي يفتح السماء علينا نحن أيضًا، ويرسل علينا الروح القدس، ولكي يقبلنا كأبناء. لأنه تحدث إلى المسيح في وقت المعمودية المقدسة، كما لو كان قد قَبِلَ الإنسان بواسطته وفيه البنوّة قائلًا: «هذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ». فالذي هو الابن بالطبيعة والحق، وهو الوحيد الجنس، فإنه حينما صار مثلنا أعلن خاصة أنَّه ابن الله، لا كأنه ينال هذا لنفسه، لأنه كما قلت أنه كان ولا يزال دائمًا هو الإله الحقيقي، ولكن يُعطي المجد لنا نحن، لأنه قد جُعل «باكورتنا»، «والبكر»، «وآدم الثاني»، ولهذا السبب كتب أن: «هُوَذَا الْكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيدًا.» (٢كو٥:١٧) ، لأننا إذ قد خلعنا القِدم الذي كان **في آدم**، فقد حصلنا على الجدّة التي **في المسيح** ، الذي به ومعه، لله الآب المجد والسلطان مع الروح القدس إلى دهر الدهور آمين .

(١) يُلاحظ هنا أنَّ القديس كيرلس الأسكندري يُشير إلى **تعاليم نسطور** وأتباعه الذين أرادوا التمييز والفصل بين الطبيعتين الكاملتين المتحدتين فى المسيح بدون انفصال أو تغيير أو اختلاط ، لذلك كان يرفض عملية الاتحاد بين الطبيعتين واستَخْدَمَ لذلك التعبير (Accompaniment) « **سينوذِيَّا Συνοδεία** » والذى يعني **الاتصال أو المصاحبة** ، ولذلك أراد **(أي نسطور)** أن يلقب العذراء مريم بأنها «**أم المسيح**» أو «**أم الإنسان**»، حيث كان يُعلِّم بأن العذراء مريم لم تَلِد الله، بل ولدت الإنسان الذى حل فيه الكلمة ، وهنا نلاحظ فصل تام بين الطبيعتين.

الدور النبوي لجبل أثوس في العالم الحاضر * جان كلود لارشيه

أيقونة پاناچِيَا پورتايتيسا العجائبيّة – دير إيڤيرون

دير ڤاتوپيذي العامر
للرُّوم الأرثوذكس ، جبل آثوس
اليونان

القداس الألهي
في دير كسينوفوندوس للرّوم الأرثوذكس
جبل آثوس – اليونان

إنَّ الرهبنة بشكل أساسي هي عيش الحياة المسيحية في التزام كامل بإنكار العالم وتكريس الذَّات لله. من وجهة النظر هذه، الرهبنة هي نفسها في كل مكان، وكل دير أو إسقيط أو مَنْسَكٍ هو مكان متميّز، مركز مرجعي للحياة الرهبانية وطريقة الحياة المسيحية. إلى حدٍ كبيرٍ، ما يُقال عن الرهبنة يمكن قوله عن **جبل أثوس**، وما يمكن قوله عن الجبل المقدس يمكن قوله عن الرهبنة.

لكن **جبل أثوس** لطالما كان مكانًا فاتنًا، يَشُدُّ انتباه ليس فقط الأرثوذكسيين، بل أيضًا الناس الذين ينتمون إلى أديان أخرى وحتّى غير المؤمنين. هذا يتمّ برهانه من عدد الكتب والمقالات عن جبل أثوس، كما من السيل الذي لا ينقطع من الحجاج والزوار من حول العالم. هذا الافتتان ليس جديدًا، بل على الأكيد هو أعظم في أيامنا منه في السابق وذلك لعدة أسباب.

١) السبب الأول هو أن جبل أثوس هو جمهورية مستقلّة، وعليه هو بمثابة وطن، يقطنه رهبان فقط وَمُكَرَّسٌ بالكليّة للحياة الرهبانية. بالرغم من أنَّ في كل بلد أرثوذكسي منطقة فيها عدة أديار، ما من بلد يجمع هذا العدد الكبير من الأديار والأساقيط والمناسك، وهو منطقة يحكمها الرهبان، مع حدود حقيقية تفصله عن البلدان والمناطق المجاورة له. إنه منطقة محمية لا فقط سياسيًا، إداريًا وجغرافيًا (كونه شبه جزيرة)، لكن أيضًا روحيًا كون جبل أثوس يُسمَّى «**حديقة والدة الإله**» وهو يُعتَبَر مكانًا يخصّها، وهي موجودة فيه بشكل خاص. بهذا، هو بلد يقطنه رهبان بكامله، لا يُسمح «بحرية تنقّل الأفراد» التي تطلبها القوانين الأوروبية، لا يسمح بتدفق السوّاح، ولا يقبل بدخول النساء، بل يمدّ النسيج الرهباني إلى مدى حدوده الطبيعية والجغرافية. إن جبل أثوس هو أرض ليست كغيرها.

٢) ثانيًا، إن جبل أثوس هو شهادة لملكوت الله الموجود في ما بيننا الآن.

إن جبل أثوس يأوي أكبر عدد من رفات العالم الأرثوذكسي وأكثرها أهمية. هذه الرفات تجعل كل القديسين المسيحيين تقريبًا حاضرين وفاعلين بمعجزاتهم.

جبل أثوس هو نقطة تتركّز فيها الحياة الرهبانية ومكانٌ مؤاتٍ للقداسة. بعضهم هم معاصرونا ومعروفون في كل العالم، **كالقديس سلوان الأثوسي، يوسف الهدوئي وأبنائه الروحيين، أو القديس باييسيوس.** من خلال قديسيه الكثيرين في الماضي والحاضر، يبدو جبل أثوس، بحسب تعبير كاتب المزامير، «الجبل المثمر»، «الجبل الخصِب» «الجبل حيث يرضى الرب أن يحيا، وحيث يعيش الى الأبد» (مزمور ٦٧:١٦-١٧).

٣) ثالثًا، جبل أثوس هو **مُذَكِّرٌ بالملكوت** وإعلانٌ له.

ليس فقط من خلال قديسيه، لكن أيضًا كمكانٍ مبارك ومؤسسة مقدسة، يُظهِر جبل أثوس بشكل نبوي عَالَمًا آخرَ يُعطي معنى للعالم الحاضر. فأثوس المدعو أيضًا الجبل المقدس وحديقة العذراء هو صورة

للفردوس، وَمُذَكِّرٌ بالفردوس الذي فقده أبوانا الأولان، وتصوير رمزي للفردوس الموعود به الأبرار.

أ) يقدّم جبل أثوس صورة للطبيعة الفردوسية لأن في تنوّع المناظر الطبيعية التي تمتد من مستوى البحر إلى علو ألفي متر، حيث قمة أثوس، تعيش الكثير من النباتات وأنواع الحيوانات مُشكِّلَةً عالمًا صغيرًا يلخّص العالم. سبب آخر هو أن الطبيعة تبقى غير ملموسة ومحمية من الاستغلال الاقتصادي والتلوث الصناعي. إن وجوده في العالم المعاصر هو ذو قيمة نموذجية. إنه نموذج لعلم البيئة الروحية التي تبرهن تكامليَّة الخليقة التي **أوكلها الله للإنسان** في الأصل لاستعماله وسدّ حاجاته، فيما هي في الوقت عينه وسيلة للتأمّل والشكر.

ب) إن مدى جبل اثوس يعكس المدى السماوي أيضًا، ويشير إلى مدى مملكة السماوات. على خلاف مساحات كل البلدان في العالم، المنقسمة بين **المُقَدَّس والدَّنِس** وأحيانًا هي **دنسة بالكامل**، تبدو مساحة جبل أثوس مقدَّسة بالكليَّة، ليس فقط بوجود عدد كبير من **الأديار والأساقيط والمناسك والكنائس والمزارات**، بل أيضًا لأنَّها تقدَّست كلّها **بالقديسين** الذين مرّوا بكل هذه الأماكن وملؤوها بأصوات صلواتهم، وبثوا في كل نقطة فيها **القوة الإلهية** التي تشعّ. في كلّ مرّة نسير على ممرٍ في جبل أثوس، نكون واثقين بأننا نضع أرجلنا على خُطى **قديسين** سبقونا هناك. الكثير من الأماكن في الطبيعة تحتفظ بذكرى **ظهور المسيح ووالدة الإله أو القديسين**. ما من دير هنا أو منسك أو مزار أو نبع ماء أو ساقية لا يمكن تفسير وجودها برؤيا سماوية أو معجزة.

ج) ينبغي قول بعض الكلمات أيضًا عن المعنى النبويّ للزمان الأثوسي. أحد الأمور ذات التأثير الملموس على زوار جبل أثوس، والتي تثير الحيرة إلى حدٍّ ما، هي تَغَيُّر الزمان. أغلب الأديار تتبع التوقيت البيزنطي، الذي لم يعد يشير لأي توقيت آخر في أي بقعة من الأرض. يُسَمِّي الرهبان توقيتنا «**الساعة العالمية**». التوقيت البيزنطي ليس مجرَّد رفات من العصور القديمة، إنه يظهر نَمَطًا آخرَ للوقت، وقتًا روحيًا، مُقدسًا لأنه مُكرَّس بالكلية لله، مُقَسَّمًا ومرتبًا ليليّ مشيئته. إنه يذكّرنا بشكل رمزي بالتوقيت السماوي ويعلن زمن الملكوت.

٤) نقطة مهمة رابعة هي حياة الجماعة كما هي مرتبة عبر الجبل ككل وفي كل دير على حدة، هي دعوة للوحدة بين البشر، وشهادة بأن هذه الوحدة ممكنة في المسيح. **في عالم ممزق بالحروب والعصبيات الوطنية، والصراعات الإثنية والتعصب**، فإن هذه الشهادة وهذه الدعوة هما بالفعل نَبَوِيَّتَانِ.

إنَّ جبل أثوس بأكمله يشهد ولأجيال كثيرة على العلاقات الحسنة بين الجماعات الآتية من خلفيات إثنية مختلفة التي لا تتعايش بسلام وحسب، بل تعيش بتناغم في رباط المحبة.

في رباط المحبة تحكم الحكومة المقدسة **جبل أثوس**، وهي مؤلفة من ممثلي الأديار الرئيسية، لا بحسب المبادئ الديموقراطية العالمية بل بروح المجمعية المسيحية. كل دير يقدّم شهادة تشبه الأخرى، وهو يديره مجلس شيوخ يرأسه رئيس الدير وينتخبه الرهبان.

٥) كنقطة خامسة، تنبغي الإشارة إلى الأدوار الرئيسية التي لعبها جبل أثوس في تاريخ الأرثوذكسية، والتي لها اليوم أهمية عظمى: الحفاظ على التقليد والدفاع عن الإيمان الأرثوذكسي. هذا دور نبوي لأن في التقليد أن النبي هو مَن يُذَكِّر الناس بإخلاصهم لله، وهو مدافع عن الإيمان في وجه كلّ من يسعى **إلى تبديله أو حرفه**.

في عالم خاضع للتغير بسرعة متزايدة، يعطي جبل أثوس مثالًا عن استقرار صورة العالم الإلهي وديمومتها. إن رهبان أثوس محفوظون من العطش إلى التغيير، والحركة التي تسبب الدوار اللذين يُشغلان الناس **السالكين في العالم**، وهم مصونون من الضغط الاجتماعي الذي يفرض الالتزام بمختلف الأوجه لنمط حياة المجتمعات الحديثة، وهكذا يحفظون بدقة القوانين الكنسيَّة، والممارسة الليتورجية، ونمط الحياة النسكيّ الذي سلّمه إلينا آباؤنا القديسون من جيل إلى جيل.

إن الصيانة الدقيقة حتّى لأصغر التقاليد كانت الشرط للحفاظ المثالي على التقليد الأرثوذكسي لأكثر من ألف عام. لقد ساهم الرهبان الأثوسيّون بشكل كبير في الحفاظ على الإيمان الأرثوذكسي في كل اللحظات الصعبة في التاريخ حين كان يُهدَّد الإيمان، وما زالوا يقومون بذلك إلى اليوم. ولهذا هم يتمتعون بهيبة خاصة وسلطة كبيرة.

إن **الدور النبوي، كالساهر والمنارة**، الذي يلعبه جبل آثوس عادة في العالم الأرثوذكسي بإشارته إلى **الانحرافات** عن التقليد وتذكير الناس بما هو الإيمان الحقيقي، هو دور ذو أهمية خاصة في عصرنا الحالي، حيث يمكننا أن نلاحظ **الوهن الكبير في الوعي العقائدي**.

٦) النقطة السادسة والأخيرة، إن جبل أثوس يساهم بطريقة أساسية في الحفاظ على الروحانية الأرثوذكسية في حالة ثابتة ونابضة بالحياة. هذه الروحانية فصّلها رهبان فلسطين وسوريا وسيناء والستوديون في القسطنطينية، لكن **الآباء الأثوسيين** صاروا منذ القرن الثالث عشر **الورثة الرئيسيين والحَفَظَةَ لهذه الروحانية**. لقد صار جبل أثوس **نموذجًا ذهبيًا للنسك والروحانية**، وجذب الكثير من الرهبان من كل البلدان. عند زيارتهم أو عودتهم لبلادهم، يساهم هؤلاء الرهبان بشكل كبير في نشر هذه الروحانية. لطالما كان جبل أثوس بشكل خاص، مركزًا لممارسة صلاة يسوع والروحانية الهدوئية. ودومًا تجد هذه الممارسة مركزها في جبل أثوس.

إن لدى آباء جبل أثوس مهمة إيصال هذا التقليد القديم إلى شعوب اليوم، وعليهم مسؤولية تسليمه إلى الأجيال القادمة. في هذا أيضًا يكمن دور الرهبنة الأثوسية النبوي والأخروي.

* **ورقة مقدّمة في المؤتمر الدولي «الروس – الجبل المقدس أثوس: ألف سنة من الوحدة الروحية والثقافية» (موسكو، ٢١–٢٤ أيلول ٢٠١٦).**

العذراء سريعة الاستجابة

في دير ذُوخْيَارِيُّو - جبل آثوس

παναγία η γοργοεπήκοος

Ιερά Μονή Δοχειαρίου

بحسب التقليد صُوّرت هذه الأيقونة في القرن العاشر على عهد مؤسِّس الدير **القديس نيوفيطس**.

هذه الأيقونة موجودة على حائط المائدة أو غرفة الطعام، فوق الباب الذي يجتاز فيه الرهبان على عادتهم للدخول إلى الغرفة.

في سنة ١٦٤٤ كان خادم المائدة **الراهب نيلوس** والذي كان بحكم عمله يجتاز هذا الباب أكثر من غيره، سَمِعَ وهو مجتازٌ الباب ليلًا على عادته اليومية – وكان حاملًا بيده مشعلًا – صوتًا **من الأيقونة** قائلًا له: «**لا تقتربنَّ فيما بعد إلى هنا بمشعلك ولا تسوِّد أيقونتي بدخانك**». فخاف نيلوس أولًا ثم هدأ روعه وعاد إلى قلايته حاسبًا أنَّ ما سمعه كان مزاحًا من أحد الأخوة. ثم تابع على عادته الاجتياز قرب الأيقونة حاملًا بيديه مشاعل ملتهبة ولذلك سمع **من الأيقونة** صوتًا يقول له: «**يا لك من راهب غير مستحق لهذا الاسم ، أتُسَوِّدُ أيقونتي هكذا بلا مبالاة ولا خجل**». فَعَمِيَ نيلوس لساعته عند سماعه هذه الكلمات، وأدرك أن الصوّت الذي سمعه في المرة الأولى كان **صوت والدة الإله** الصادر من **أيقونتها الشريفة**، فندم على عدم انتباهه واعتبر نفسه مستوجبًا بعدل لهذه العقوبة.

في صباح اليوم التالي وَجَدَهُ الأخوة مُلقًا على ظهره أمام الأيقونة. وعندما سمعوا منه ما حدث له سجدوا بورع **أمام الأيقونة** وأوقدوا أمامها قنديلًا دائم الاشتعال وانتخبوا خادمًا جديدًا للمائدة وطلبوا منه أن يبخرها كل مساء.

أما نيلوس **المُبْتَلَى بالعَمَى** فكان يصلي باكيًا أمام **الأيقونة** ليلًا ونهارًا معترفًا **بخطيئته**. **فاستجابت والدة الإله لتوبته القلبية ودموع صلاته**. ففي أحد الأيام عندما كان يصلي ويبكي أمام **أيقونتها العجائبية سمع صوتًا ملؤه الحنان** يقول له: «يا نيلوس قد سُمِعَت صلاتك فصُفِحَ عنك وستُمنَح عيناك الضياء، فإذا ما نلت مني هذه الرحمة، بشّر الأخوة بأنني أنا سترهم ومدبرتهم، والحامية عن ديرهم المكرّس لرؤساء الملائكة، فليلجأوا إليّ هم وجميع الأرثوذكسيين وأنا لا أهمل أحدًا، وسأكون الشفيعة لجميع الملتجئين إليّ بورع، وابني وإلهي يستجيب طلباتهم كلها لأجل شفاعتي أمامه، ولذلك تسمى أيقونتي هذه من الآن (**السريعة الاستجابة**) لأني سأبدأ الرحمة بسرعة وتحقيق الطلبات لجميع المستغيثين بي أمامها».

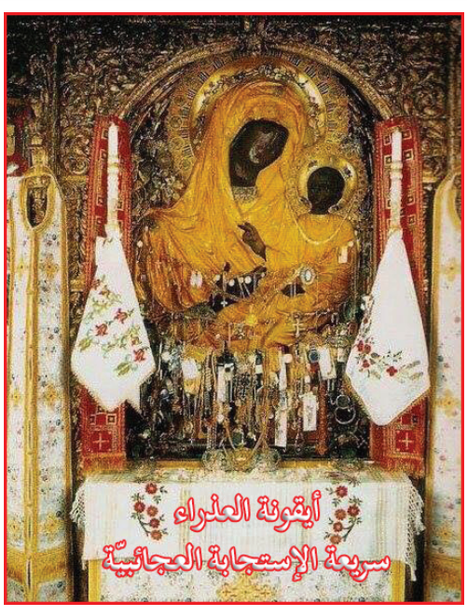

أَبْصَرَ نِيلُوس بعد هذا الكلام وشكر **السيِّدة** بدموع استجابتها لتضرعه، وذاع خبر هذا الحادث العجيب بسرعة في جبل آثوس المقدس كله، فتوافد كثير من الرهبان ليسجدوا للأيقونة المقدسة ويعاينوا خادم المائدة الذي عوقب ثم رُحم، فغُفِر له وعاد يبصر.

فيما بعد اتفق الرهبان على أن يحوّطوا ممر المائدة بشكل أن يصبح مقامًا، وشيّدوا كنيسة إلى جهة **الأيقونة** اليمنى على **اسم والدة الإله السريعة الاستجابة**، وقرروا تعيين راهب كاهن ليقيم دائمًا عند الأيقونة ويحتفل صباحًا ومساءً بإقامة الصلوات أمامها، ويشعل المصباح دائمًا وفي يومي الثلاثاء والخميس من كل أسبوع يجتمع الرهبان مساءً ليرنموا صلاة الابتهال أمامها (البراكليسي). وقد جرت عدة عجائب منها: **شفاء العميان، العرج والمصابون بالفالج، وَنَجَّت كثيرًا من السفن الموشكة على الغرق، وكذلك من الأسر عندما كانوا يطلبون شفاعة السيدة العذراء السريعة الاستجابة.**

نعيّد لها في ١ تشرين الأوّل

الطروبارية باللحن الأوّل:

«إذ نُنقّي بالعفاف النفوس والأجساد، نُتمّ تذكار البتول السريعة الإستجابة. وبرغبة سوف نسجدُ، لأيقونتها المقدّسة، منشدين بحبور لحنًا ملائكيًا، وهاتفين: سُرّي يا عرشًا ناريَّ الهيئة لإلهنا، سُرّي يا سترًا للأنام مهيبًا، سُرّي يا من لَلأدعية تستجيب سريعًا.»

سيرة القديس نكتاريوس العجائبي

سوتوس
خوندروبولوس

الجزء الرابع

وفي بداية شهر تشرين الأوّل، وصَلَ من لَمِيَّا شاب جديد، صديق محبوب، وكأنّه عصفور من السماء، حُرٌّ وَفَرِحٌ، غير عابئ بكل ما هو مأساوي وجدّي. وكان يحمل حقائبه القليلة وبَرَكَة والديه.

وإذ وصَلَ أمام نكتاريوس، جثا على رُكبتيه في ٱنْحِنَاءَةٍ بحسب الأصول وَقَبَّل يده. ثمَّ راح يبحث ببساطة الطفل في السلّة الصغيرة التي أحضرها معه، وأخرج منها علبة تحتوي على جبنة ووعاء من مُرَبَّى العنب، وقال له:

– «لقد طلبت منّي والِدَتي أن أُعطيك هذا.»

– «شُكرًا يا كوستي، الربّ يباركك. كيف حال والدك والعائلة؟»

– «لقد أصاب والدي المرض منذ رحيلك: أُصيب بالبرد، واضطر لملازمة الفراش لمدة خمسة وعشرين يومًا. وشقيقتي ديسبينا أيضًا. دعنا ننسى الأمر يا سيّدي، لقد واجهتنا صعوبات كثيرة، واضطررنا لاستدانة المال. تقول والدتي انك طيلة الوقت الذي كنتَ فيه معنا ...»

فقاطعه نكتاريوس:

– «دعنا من المبالغة. ولا تنجرفوا وراء هذا النوع من الأفكار: فالربّ يهتم بِنَا جميعًا.

اسمع يا كوستي:

– «أُطلب ما تُريد.»

– « انتبه جيدًا يا بُنيّ: سأبذل ما بوسعي لمساعدتك. لكن عليك أنتَ أن تكون يَقِظًا ومُجتهدًا، وأن تُصبح من بين الأوائل. وطالما أنتَ طالبٌ هنا، أُريدك ألَّا تُكَلِّمني كثيرًا أمام الباقين. والتزم التحفّظ تُجاهي لكي لا ندع مجالًا للأقاويل.

– « نعم سأُنفّذ ما تَقوله».

– «وإذا استطعت أن تُصبح من بين الأوائل فسوف يُعَيِّنوكَ ناظرًا في المدرسة.»

– «هذا رائع، فسأتمكّن عندها من أن أُساعد والدي بعض الشيء.»

وتبعَ هذا الكلام الصمت الذي تبادلا فيه النظرات، كما في السَّابق عندما كانا في لَمِيَّا. والتقت عينا الشيخ الزرقاوان بعيني الولد الزرقاوين. ولمعت عينا الشيخ وتمتم:

– «أرجو لكَ النجاح هنا. وهكذا أكون أنا أيضًا قد حصلتُ على رفيق، ولو صغير السِّنّ».

فأجاب كوستي:

– «سأنجح يا صاحب السِّيادة. لقد قال لي أُستاذي هناك إن العلامات الجيدة ستهطل عليّ عما قريب. وبمعونة الله سوفَ أبقَى إلى جانبك حتَّى الموت»

ولم يستطع نكتاريوس أن يكتم ضحكته فقال:

–«أُباركك يا كوستي. ولتُرافقك نعمة والدة الإله وتحفظ طريقك».

فانحنَى كوستي وَقَبَّلَ يد الأُسقف من جديد وحصل على بَرَكَتِهِ.

« يقول الكتاب أن الله امتحن إبراهيم. فَلِمَ امتحنه؟
ألم يعرف الله أن إبراهيم كان إنسانًا نبيلًا ؟ فلماذا امتحنه؟
امتحنه لكي يظهر للملأ فضيلته وقياديته.
وهنا يظهر سبب التجارب، لئلا يظن الناس أنهم يتألمون كَمَنْسِيِّين ».

«انتبهوا من ألَّا يتخلف أحد عنكم، فأنا لا يبهجني أن تصلوا أنتم فقط، ما يبهجني هو أن تعتنوا بالآخرين أيضًا. لا تقُل لي: إنسان واحد فقط سَيَضِلّ. فالمسيح من أجل هذا الفرد مات، ألا تعتني بمن مات المسيح من أجله؟»

القديس يوحنا الذهبي الفم

« المتواضع يدنو من الوحوش الضارية، وعندما يقع نظرها عليه تدنو منه، وكأنه سيِّدها، وتهزُّ رؤوسها وتلحس يديه ورجليه، لأنها تشمُّ فيه تلك الرائحة الطيبة التي كانت تفوح منه قبل السقوط، عندما كان يسميها وهي تحيط به في الفردوس. إن هذا الأمر نُزع منّا، لكن يسوع جدَّده فينا وأعاده إلينا بمجيئه، وطيَّب بشَذاه الجنس البشري».

القديس اسحق السوري

الأرثوذكسيّة (٨٩)
قانون إيمان لكل العصور

وننتَظِر قيامة الأموات

قالَ شخصٌ مُلحِدٌ ذات يوم: «**إنَّ الإنسان العَصري قد نما إلى درجةٍ لم يَعُد بعدها مُحتاجًا إلى الله، نحنُ صِرنا نعلَم جيِّدًا مِن خِلال التقنيات الحديثة، ما هي مشاكلنا وكيف أيضًا نتعامَل معها أو نحلّها**».

فسأله صديقٌ مسيحيّ: «**هل تستطيع أن تحلّ مُشكلة الموت، أعظم مشكلة للبشريّة؟**». **فطأطأ المُلحِد رأسه إلى أسفل وعَجَزَ عن الإجابة.**

قال رِوائي إنَّه أمضَى كلّ حياته بطريقة ناجحة في مهنته، ولكن الدخيل الوحيد الذي يعجز عن التعامل معه هو الموت.

الموت هو أعظم دخيل غير مُرَحَّب به في الحياة. النَّاس تتعوَّق وتَرتَبِك عند الحديث عنه – (عَوَّقَتْ قَضَايَاهُ : تَثَبَّطَتْ،اِسْتَعْصَتْ عَنِ الحَلّ) –.إنَّهم يستاؤون منه، وفي داخلهم العميق يخافون منه. يُمكنهم أن يعملوا أي شيء في الحياة ويَقبَلوهُ **إلَّا الموت !**

قال صديق: «ذهبتُ في يوم من الأسبوع الماضي إلى دار بيع التوابيت لاختيار صندوق لأختي، فاقتادوني إلى حُجرة عَرْض حيث كانت توجد عدَّة صناديق مفتوحة ولها أثمان مُختلفة، ولمَّا كانت الأغطية مفتوحة كان يَظهر كما لو كانت مخالب الموت داخلها. وبعد أيامٍ قليلةٍ وقفنا بجوار مقبرة مفتوحة لتَظهَر مخالب الموت مَرَّةً أُخرَى لتلتهم حبيبتنا».

يقول بعض الأطباء النفسانيِّين إنَّ الخوف من الموت، هو أساس كُلّ قلق واضطراب بشري. يقول **الدكتور كريستيان بارنهارد** طبيب جراحة القلب الشهير: «إنّ الخوف من الموت هو الذي قاده لدراسة الطبّ واتخاذه مهنة له، وكان هدف الدراسة هو أن يجد مخرجًا ينقذه من موته الشخصي».

ورغم حقيقة أن الخوف من الموت هو في عمقه أكثر الأشياء المُتَسَبِّبة في قلقنا، إلَّا أنَّه أصبح موضوعًا محظورًا. وكما أن موضوع الجنس يُمنَع الكلام فيه في سنّ صغيرة، هكذا **فكر الموت** يُمنع الحديث عنه في أيامنا هذه. يَجفَل الأطباء من إبلاغ المريض بقرب موته، بل ونحن أنفسنا أحيانًا نخفي الموت عن أقاربنا وهم يقتربون نحوه، فنلعب ونتسامر معهم ونتظاهر أنّ كُلّ شيء على ما يُرام.

يُروَى عن **ويليام راندولف** الشخص الثريّ الذي كدَّس لنفسه قوَّة هائلة، ومالًا كثيرًا في حياته، أنَّه لم يكُن يَسمح لأي شخصٍ أن يستخدم كلمة الموت في وجوده !

أمَّا إيماننا الأرثوذكسي المسيحي فهو بالتأكيد لا يُخفي **حقيقة الموت**. إنَّه لا يُخفيه لأنه لا يَخافه، ولكن لأنَّه يتطلَّع إليه بوضوح في عين الشمس، وله كثير ليقول عنه. فمثلًا في كُلّ قدَّاس نحن نعترف بقانون الإيمان النيقاوي ونقول: «وننتظر قيامة الأموات»... إنَّ التقويم الديني المسيحي الأرثوذكسي يمدّنا بعدَّة مناسبات نتواجه فيها وجهًا لوجه مع حقيقة الموت. في أيام السبوت وعلى مدار السنة نحنُ نُصَلِّي لأجل أحبائنا المنتقلين، ونذكُر في هذه الأيام أحباءنا الذين عاشوا وماتوا ويعيشون الآن في السماء إلى الأبد. نحنُ نُصَلِّي لأجلهم كما نذكُر أيضًا أننا يومًا ما سوفَ نموت مثلهم. أمَّا أعظم الأعياد المسيحيّة الأُرثوكسيّة قاطبة فهو **عيدُ القيامة**، وللشخص الأُرثوذكسي المسيحي أن يغوص في كلّ يوم من أيام السنة في **قيامة المسيح من الأموات**، تلك القيامة الانتصاريَّة المُتَوَهِّجَة. كما أننا نتذكَّر في يوم الأحد الذي هو أوَّل يوم في الأسبوع تلك **النصرة على الموت** ونحتفل بها.

أمثلة من التاريخ عن القيامة:

عندما نقول إنَّنا نؤمن بقيامة الأموات، فنحن لا نتكلَّم عن أُسطورة أو قصَّة خُرافيَّة. نحنُ نبني عقيدتنا على برهان تاريخ موجود في الأناجيل.

تقابَلَ يسوع يومًا ما مع موكب جنائزي فيما كان داخِلًا مدينة نايين، وكان الأهل يحملون جسد شخصٍ ميِّت، لشاب صغير السِّن. ومعروف عندما يأتي الموت إلى حَدَث، فإنَّه يُسَبِّب حُزنًا أكثر ممَّا لو كان الميّت كبير السِّن. عَلِمَ يسوع أنَّ الميِّت وحيدًا لأُمِّه، وكانت هذه أرملة، فتحرَّك قلب الربّ تجاهها وقال لها: .«لَا تَبْكِي». ثُمَّ تَقَدَّمَ وَلَمَسَ النَّعْشَ، فَوَقَفَ الْحَامِلُونَ. فَقَالَ: «أَيُّهَا الشَّابُّ، لَكَ أَقُولُ: قُمْ!». فَجَلَسَ الْمَيْتُ وَابْتَدَأَ يَتَكَلَّمُ، فَدَفَعَهُ إِلَى أُمِّهِ. فَأَخَذَ الْجَمِيعَ خَوْفٌ، وَمَجَّدُوا اللهَ قَائِلِينَ:«قَدْ قَامَ فِينَا نَبِيٌّ عَظِيمٌ، وَافْتَقَدَ اللهُ شَعْبَهُ». (لو ٧: ١١-١٧).

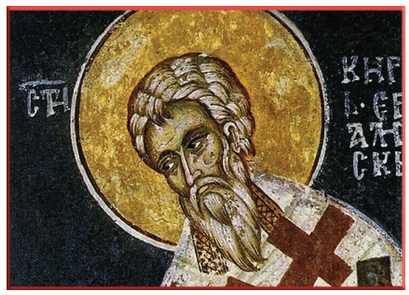

العظات الثماني عشرة لطالبي العماد

لأبينا القديس كيرلس رئيس أساقفة أورشليم

العظة السابعةَ عشرة «في الروح القدس» (تابع)

العظة السابعةَ عشرةَ

في الروح القُدس (تابع)

٢٧– ... وعمل والروح القُدس في بطرس:

وبقدرة الرُّوح القُدس أيضًا شَفَى **بطرس** باسم الربّ يسوع، **إيناسَ المخلَّع في اللدّ** التي تُدعى الآن **ذيوسبولس** (اعمال ٩:٣٢–٥٣). وفي يافا أقام من الأموات **المحسنة طابيتا** (اعمال ٩:٣٦–٤٢). ولمَّا كان على السَّطح رأى رؤيا، فكاذا السماء مفتوحة وشيء كسماط عظيم ينحدر الى الأرض، عليه من جميع أشكال وأنواع الحيوانات ... وتعلّم ألَّا يقول عن أحد إنه **دنس أو نجس** وإن كان من عابدي الأصنام. وعندما دعاه **كُرنيليوس**، قال له الرّوح القُدس نفسه علنًا: «هُوَذَا ثَلاَثَةُ رِجَال يَطْلُبُونَكَ. لكِنْ قُمْ وَانْزِلْ وَاذْهَبْ مَعَهُمْ غَيْرَ مُرْتَابٍ فِي شَيْءٍ، لأَنِّي أَنَا قَدْ أَرْسَلْتُهُمْ». (أعمال ١٠:١٩–٢٠). ولكي يُظهر الله بوضوح أنَّ المؤمنين الذين من الأمم يُصبحون شُرَكاء في نعمة الرّوح القُدس – عندما وصل بطرس إلى قيصرية وعَلَّمَ ما يخصّ المسيح – يقول الكتاب عن كُرنيليوس والذين كانوا حاضرين معه: «فَبَيْنَمَا بُطْرُسُ يَتَكَلَّمُ بِهذِهِ الأُمُورِ حَلَّ الرُّوحُ الْقُدُسُ عَلَى جَمِيعِ الَّذِينَ كَانُوا يَسْمَعُونَ الْكَلِمَةَ.» (أعمال ١٠:٤٤). بحيثُ أنَّ المؤمنين المختونين الذين رافقوا بطرس دهشوا، إذ رأوا هِبَةَ الروح القُدس أُفيضت أيضًا على الوثنيين.

٢٧– بِوَحي الروح القُدس يُسمَّى التلاميذ «مسيحيين».

ولما انتشرت الكرازة بالمسيح **في انطاكية، مدينة سوريا الشهيرة**، أُرسل من هُنا – أورشليم – إلى أنطاكية **برنابا** ليساعد على عمل الخير. «لأَنَّهُ كَانَ رَجُلاً صَالِحًا وَمُمْتَلِئًا مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ وَالإِيمَانِ.» (أعمال ١١:٢٤). ولما رأى كثرة عدد الذين آمنوا بالمسيح، استقدم من طرسوس رفيقه بولس، فعلّما خلقًا كثيرًا وأدخلاهم في الكنيسة. «وَدُعِيَ التَّلاَمِيذُ «مَسِيحِيِّينَ» فِي أَنْطَاكِيَةَ أَوَّلاً.» (أعمال ١١:٢٦). وكان الرّوح القُدس، على ما أظن، هو الذي فرض على المؤمنين الاسم الذي أعلنه الربّ من قبل «وَيُسَمِّي عَبِيدَهُ اسْمًا آخَرَ.» (اشعيا ٦٥:١٥). **وأفاض الله نعمة الرّوح القُدس بغزارة** في أنطاكية ؛ ولذلك قام فيها انبياء ومعلّمون بينهم **أغابُس**. «وَبَيْنَمَا هُمْ يَخْدِمُونَ الرَّبَّ وَيَصُومُونَ، قَالَ الرُّوحُ الْقُدُسُ:«أَفْرِزُوا لِي بَرْنَابَا وَشَاوُلَ لِلْعَمَلِ الَّذِي دَعَوْتُهُمَا إِلَيْهِ». فَصَامُوا حِينَئِذٍ وَصَلَّوْا وَوَضَعُوا عَلَيْهِمَا الأَيَادِيَ، ثُمَّ أَطْلَقُوهُمَا.» (اعمال ١٣:٣).

من الواضح إذن أنَّ الرّوح القُدس الذي يتكلَّم ويُرسِل هو حيٌّ قائم بذاته وعاملٌ، كما سبقنا وقلنا.

٢٩– الروح القُدس يحرّر المسيحيين من الشريعة اليهودية

هذا الرّوح القُدس الذي بالاتحاد مع الآب والابن أَلَّفَ العهد الجديد في الكنيسة الجامعة وحرّرنا من **أعباء النّاموس المُرهقة** أعني بذلك التقاليد الخاصّة **بالدَّنِس والنَّجِس، بالطعام، بالسبوت، ورؤوس الأَهلّة، بالختان والتطهيرات والذبائح** ... هذه الأشياء التي أُعطيت لزمن، وكان لها ظِلّ الخيرات المستقبلة، قد أُلغِيَت بحقّ عندما جاءت الحقيقة. لأنه على إثر المشكلة التي اثارها في انطاكية هؤلاء الذين كانوا ينادون **بضرورة الختان والتزام كلّ التقاليد الموسوية**، أُرسِلَ بولس وبرنابا، وحرَّرَ الرّسُل الذين كانوا هنا في أورشليم **الأرض كلّها من التقاليد الموسوية والرمزيّة** بموجب الرسالة التي كتبوها. ومع ذلك لم يعطوا هذا القرار قوّة الالتزام من عندهم كما يعترفون بذلك في ما كتبوه: «لأَنَّهُ قَدْ رَأَى الرُّوحُ الْقُدُسُ وَنَحْنُ، أَنْ لاَ نَضَعَ عَلَيْكُمْ ثِقْلاً أَكْثَرَ، غَيْرَ هذِهِ الأَشْيَاءِ الْوَاجِبَةِ: أَنْ تَمْتَنِعُوا عَمَّا ذُبحَ لِلأَصْنَامِ، وَعَنِ الدَّمِ، وَالْمَخْنُوقِ، وَالزِّنَا» (أعمال ١٥:٢٨–٢٩). وقد اثبتوا بوضوح بما كتبوا أنَّ المكتوب، ولو انّه صدر عن بَشر، انَّما هو أمر الرّوح القُدس للعالم أجمع. وتسلّم **بولس وبرنابا** هذا القرار وأذاعاه في الأرض كلّها.

القديس غريغوريوس اللاهوتي
(الخطبة 31)

«تسأل: ما هو انبثاق الروح القدس؟ قل لي أولًا ما هي «لا ولادة الآب». وبدوري سوف أعالج كفيزيولوجي ولادة الابن وانبثاق الروح القدس. بهذه الطريقة سوف نصاب، أنت وأنا بالجنون، وذلك لأننا نظرنا بِمُرَاءَاةٍ إلى أسرار الله».

قَالوا قنعْتَ بِذَا قلتُ القنوعُ غِنَى
ليسَ الْغِنَى كثرةَ الأموالِ والْوَرَقِ
رَضيتُ بالله فِي عُسْرِي وَفِي يُسْرِي
فَلَسْتُ أسلُكُ إلَّا أوضَحَ الطُرِقِ